


# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

- رسالة الإحياء - فتح الله كولن
- الأنصاري؛ نص المولد وخطاب الوداع - أ.د. سليمان عشراقي
- مسارات العمران من خلال القرآن - أ.د. زيد بوشعراء
- الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف - د. سمير بودينار
- الجهاز العضلي يتكلم - أ.د. عرفان يلماز



إن أمتنا ابتداء، ثم الإنسانية جمعاء، بحاجة ماسة إلى فكر سام يقوي إرادتنا، ويشحذ هممنا، وينور أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرضنا للخيبة مرة أخرى. نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو حسية، وتكون محصنة ضد النواقص، وصالحة للتفعيل والتطبيق بأقصى درجة كلما سمحت الظروف.

## التأكيد على الذات

الإنساني المفعم بحب الإنسان هو وحده الذي يحترم إنسانية الإنسان، ويحرص على أن يظل جوهره في طوياه سالماً لا تطاله معاول الهدم والتخريب، وهو يسعى إلى النفاذ إلى دواخله والعمل بكل جد على تمدين ما تبقى في هذه الدواخل من وحشية قرون ما قبل التاريخ، وأثار من حيوانية الكهوف والغيران، ثم يسمو به إلى أعلى درجات الفكر، وأرفع ما يمكن أن يصل إليه من إدراك لمكانته العالية في سلم الخلق والوجود.

فالرسالة الإحيائية للأستاذ "فتح الله كولن" والتي يكرس لها قلمه تدرج في هذا الاتجاه. فهو يسعى إلى إحياء "ذات المسلم" وبعثها من جديد وجعله يعترف بإنسانيته ويكن لها من الاحترام ما يمنعه من امتهاها والنزول بها منازل أسفل سافلين. والأستاذ يرى أن الحقيقة الكامنة وراء جميع الصراعات الحضارية والإنسانية تتمثل في الرغبة على تأكيد الذات، وإن هدف الحياة يدفع في اتجاه بعث الإرادات السامية من أجل فهم الإنسان لذاته، وتقويم المعنى الأقدس لوجوده، غير أن الذات التي مضى على نومها القرون الكثيرة لا يجدي لإفهامها وإيقاظها للمسلمات التحسيسية الناعمة، بل لابد من هزة قوية تطير النوم عن أجفانها، ومن هنا نستطيع أن نفهم توكيدات الأستاذ على هذه القضية في المرة تلو المرة.

وقد سعت "حراء" منذ صدورها إلى التنبيه إلى هذه المهمة المقدسة التي يتوقف عليها نموضنا الديني والحضاري. إنما تحاول جهد إمكانها على إعادة تدفق الدم النقي من جديد إلى أجزاء روح المسلم التي بدت وكأنها تموت من السأم والضجر. وهذا الخط المعرفي الذي اختطته "حراء" نفسها لا تزعم أنه الخط الذي يكفي ويغني، لذلك فهي تؤمن بالحوار وتبادل الأفكار والاطلاع على خبرات الآخرين وتجاربهم. ولعل المؤتمر الذي انعقد في "القاهرة" في يوم ١٩-٢١ من شهر أكتوبر ٢٠٠٩ تحت عنوان "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية" دليل على رغبتنا الصادقة في أن نفهم عن الآخرين، وأن يفهم الآخرون عنا، والإفادة من تجارب بعضنا من البعض الآخر. فأمثال هذه المؤتمرات تسهم في التقريب بين الأفكار ووجهات النظر المختلفة.

وبعد.. فبمزيد من الأسى واللوعة نعي "حراء" إلى قرائها الأستاذ الدكتور "فريد الأنصاري" .. إذ وافاه الأجل المحتوم في يوم ٦ من شهر نوفمبر ٢٠٠٩ في أحد مشافي "إسطنبول"، بعد صراع رهيب مع مرضه العضال. والأستاذ "فريد الأنصاري" كان واحداً من أبرز كتّاب "حراء" وأصدقهم غيرة عليها، فأتحفها بالكثير من المقالات والدراسات التي لاقت الاستحسان والإكبار من قراء المجلة الكرام. ونحن إذ نفتقد واحداً من أقدار الأعلام وأكثرها تألقاً، نعزي أنفسنا ونعزي قراءنا داعين الله أن يتغمده برحمته الواسعة ويسكنه فسيح جناته ويجزيه عنا خير الجزاء... ■

## حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الثامن عشر - السنة الخامسة (يناير - مارس) ٢٠١٠

### التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتجاوز أسرار النفس البشرية وأفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوساطة في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

### شروط النشر

- أن يكون النص المرسل حديثاً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرحى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، وهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş  
İstanbul / Türkiye

### صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

### المشرف العام

نوزاد صواش  
nsavas@hiramagazine.com

### رئيس التحرير

هانع رسلان  
hraslan@hiramagazine.com

### مدير التحرير

أحير إشيوك  
eisiyok@hiramagazine.com

### المخرج الفني

مراد عرابجي  
marabaci@hiramagazine.com

### المركز الرئيسي

HIRA MAGAZINE  
Kıstıklı Mah. Meltem Sok.  
No:5 34676 Üsküdar  
İstanbul / Turkey  
Phone: +902163186011  
Fax: +902164224140  
hira@hiramagazine.com

### مركز التوزيع

٧ ش البرامكة - الحي السابع - م. نصر/القاهرة  
تلفون وفاكس: +20222631551  
هاتف الجوال: +20165523088  
جمهورية مصر العربية

### نوع النشر

مجلة دورية دولية

### Yayın Türü

Yaygın Süreli

### رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

### للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

# المحتويات



- ٢..... رسالة الإحياء / فتح الله گولن (المقال الرئيس)
- ٨..... مسارات العمران من خلال القرآن / أ.د. زيد بوشعراء (دراسات إسلامية)
- ١٤..... الشعر في خدمة القرآن / د. محمد حكيب (أدب)
- ١٨..... أسرارٌ هندسية في خلية عسل / أ.د. محمد سامي بولات أوز (علوم)
- ٢٠..... المسلم والخيال العلمي / د. خالد عمارة (قضايا فكرية)
- ٢٣..... الزمن الروحي في فكر النورسي / أديب إبراهيم الدباغ (قضايا فكرية)
- ٢٦..... الثقب السوداء العملاقة / محمد هاشم البشير (علوم)
- ٢٨..... الوجه الآخر للموت / أ.د. مأمون فريز حرار (قضايا فكرية)
- ٣٠..... الاضطرابات النفسية / د. أحمد محمد شعبان (علم النفس)
- ٣٤..... سلاطين بني عثمان / ضياء ديميرال (تاريخ وحضارة)
- ٣٨..... الجهاز العضلي يتكلم / أ.د. عرفان يلماز (علوم)
- ٤٢..... حتى يتبين لهم أنه الحق / أ.د. عماد الدين خليل (قضايا فكرية)
- ٤٦..... الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف / د. سمير بودينار (قضايا فكرية)
- ٤٩..... المسرح بين الفنون الإسلامية / محمود محمد كحيل (ثقافة وفن)
- ٥٣..... الأنصاري؛ نص المولد وخطاب الوداع / أ.د. سليمان عشراي (تحليل كتاب)
- ٦٣..... بدا حاجب الأفق / فتح الله گولن (شعر)
- ٦٤..... فارس بلا جواد / أ.د. حسن الأمراي (شعر)



EGYPT  
7, el-Baramaka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi  
Nasr City-Cairo/EGYPT  
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKIYE  
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5  
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKIYE  
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 40

USA  
The Light, Inc.  
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,  
08873 New Jersey, USA  
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA  
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع  
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia  
Tel: +966 1 4871414  
GSM: +966 504358213

SYRIA  
GSM: +963 944 355675

MOROCCO  
الدار البيضاء ٧٠ زقة سجلحامة  
Société Arabo-Africaine de Distribution,  
d'Édition et de Presse (Sapress)  
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco  
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN  
دار النشر للجامعات  
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة  
Tel: +967 1 440144  
GSM: +967 711518611

ALGERIA  
GSM: +213 770 625650

SUDAN  
Tel: +249 918248388

JORDAN  
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES  
دار الفقيه للنشر والتوزيع  
ص.ب. 6677 أبو ظبي  
Tel: +971 266 789920

# رسالة الإحياء

﴿ فتح الله گولن ﴾

ل

اليوم لم تعمل كما ينبغي، بل عجزت عن العمل، وبالتالي هناك خلل في الأنظمة كلها!. وهذا يقتلع المحاسن التي غرستها تلك الأنظمة، فلا يبقياها في ذاكرة البشر إلا خيلاً بائساً ورؤى خائبة. وكما أن نقص قطعة صغيرة في نظام ميكانيكي متكامل، يعطل عمل النظام ويجوله إلى ركام، فكذلك هذه الأيديولوجيات برزت إلى الميدان بادعاءات مبهرة، لكنها كانت علييلة بعلل وبيلة؛ مثل التضاد مع الطبع البشري، والعجز عن احتضان الفئات كلها، والقصور في إنجاز وعودها، والضعف في الاستجابة للحاجات الإنسانية؛ والأنكأ إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، بل تأجيج بعضها مشاعر الحقد والبغض والغيط بين البشر... ذلك كله قوض أركان الأيديولوجيات كلها فخلفت خرائب فكرية وأنقاضاً، أو قُلْ؛ هكذا حُدسُ المجتمعات وظنُّها. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم -إلا شذوذة قليلة- في حالة تززع وخبية أمل وترقب مريب وبحث عن مخرج خارق للأسباب. بناء على ذلك، فإن أمتنا ابتداءً، ثم الإنسانية جمعاء،

لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمناً طويلاً، بل لم نعرف أيديولوجية اكتشفت كل الضرورات اللازمة التي يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدول الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوب الاشتراكية والشيوعية في الشرق، ولا "المحايدون" الذين سواء وجودهم وعدم وجودهم، والذين عبر عنهم "جميل مريج" بـ "رجال الأعراف". إن الإخفاق في تحقيق الوعود، زعزع أركان الثقة لدى المترقبين والمستعدين للاستقبال، وزيادة على ذلك، فإن عجز الحلول المطروحة عن البلوغ إلى مستوى العالمية، وقصورها عن احتضان البشرية كلها، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية، قد أوقع الجميع في أزمة انعدام الثقة... بل في الريبة والشك في كل وعود من يعد! فتقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يعرض عليها موقف الشك والقلق والاستهزاء.. لأنها باتت تعتقد أن الأنظمة التي فُرِضت عليها حتى



دائماً. إن النية الخالصة جدرة بالتقدير باعتبارها بعداً معنوياً في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطيء. إن أي حركة من الحركات قد تكون بناءة أو هدامة حسب أنماط عرضها. وإذ يفيد العقل والمنطق والمشاعر قيمة في أي مخطط أو مشروع، فإنه من المهم جداً وجود تمثيل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية. وأحياناً قد تبيد الأعمال بعضها بعضاً بـ"التعارض" و"التساقط"، وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحاً؛ فعندما يحاول أفراد النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسيابي المشترك، يَسْحَبُ بعضُها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى... فتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف. كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومثل عليها، أو وُجِدَت ولم تمتلك معها جاهزية ذهنية تناسبها، تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطاً، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيين هدف سام يوقره الوجدان ويُرَعَب فيه الانسياب الذاتي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة. لقد تكاثفت المساعي الفردية كلها إبان الكفاح الوطني (حرب الاستقلال) في اتجاه تحقيق تركيا المستقلة. فهذا الهدف كان بسيطاً جداً، ولكن استطاع أن يجوز على الاحترام من كل الفئات، فيستحوذ على العقل والمنطق والعواطف، ويكتف الحركات كلها في نقطة واحدة. فكانت هذه القوة في إطار الشروط العادية والأخذ بالأسباب كافية لتحقيق الهدف المقصود. غير أن كل نصر وظفر يستجلب الفتور والزهو. لذلك، يصعب صعوبة شديدة الحفاظ على نقاء لون الفكرة من التغيير، وإدامة وجودها بحيويتها التامة. وترك تقويم مدى نجاحنا في هذا الأمر للتاريخ... ونقول إنه لا مفر للمجتمع الذي يعيش الظفر والنصر من الوقوع في ارتخاء التحفز الميتافيزيقي والتورط في دوائر الفتور الفاسدة، ما لم يستمر إمداده بغذاء الأسباب الجديدة المحفزة نحو الأهداف والغايات السامية. وقد لا نُصِيبُ إذا حصرنا أسباب الارتخاء في هذا التحفز إلى الفتور المصاحب للانتصارات في العادة، أو إلى نشوة النصر، أو إلى الانقباض واللامبالاة التي قد

بحاجة ماسية إلى فكر سام يقوي إرادتنا، ويشحذ هممنا، وينور أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرضنا للخيبة مرة أخرى. نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو حسية، وتكون محصنة ضد النواقص التي ذكرناها آنفاً، وصالحة للتفعيل والتطبيق بأقصى درجة كلما سمحت الظروف. إننا نشهد مرحلة يتغير فيها مركز العوالم الفكرية في الأرض، وتزحف العلاقات الأساسية والدائمة من عوالم الأشخاص إلى عوالم الأفكار، وتضطرّ البشر بعد التجارب الفاشلة إلى المبالغة في التمحيص. فإن وُقِّدنا في استثمار هذا الوضع العام بإستراتيجيات متماسكة ومنسجمة، وتنظيم الحس الميتافيزيقي في المجتمع والنشاط الفعال المتراكم فيه منذ عصور، حول هدف سام، فلسوف يجتمع الجمهور الأعظم من الإنسانية -ولو بنسبة معينة- ليحوموا حول هذا المركز الجاذب، إن لم يكن من يومه، ففي القابل القريب.

لكن ينبغي بادئ ذي بدء، تعيين ذلك الهدف السامي. لقد تعرضت أمم عديدة في الماضي، كما تعرض في الحاضر، إلى هزات شديدة لتقاعسها في ربط سياساتها السارية بهدف سام وسليم، وقصر باعها في النفوذ إلى قلوب البشر. صحيح أن هذه الحال أسطع ظهوراً في البلدان التي لم تستقر فيها الحضارة والديمقراطية استقراراً كاملاً؛ لكن الأمم التي ادعت لنفسها أستاناذية العالم في الحضارة والديمقراطية، ليست أحسن حالاً في هذا الأمر؛ فمهما كان بهرج ظواهرها، ومهما زعمت دعاياتها، فإن عديداً من الدول التي تبدو عظيمة بترفها وبذخها وأمتهتها، إنما تلهي في الواقع حشود الغافلين بالخدع الوقتية لحركتها في فلك البراغماتية، وتصمت كالبيكم إذ تدعو الحاجة للحديث عن الغد، حيثما يستوجب الرجاء في مستقبل مأمول مغبوط أو حياة راقية... والأنكأ للجرح أنها تتمادى في تجويع القلب والروح والوجدان.

فالواجب علينا الآن -مع وضع هذه السلبيات نصب أعيننا- أن نضع أمامنا أهدافاً سامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيمنا الذاتية أساساً لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحقق الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقق الاستقرار في السياسات، نتمكن من استخدام هاتين القوتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصدام بينهما. ونقول "من غير الصدام بينهما"، لعلمنا بأن أي نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بناءة





إن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمرة الرغبة في إحياء الآخرين مرة أخرى في أرواح أفراد الأمة، وفرز الأفكار الغريبة المندسة بين "الأمة" وأهدافها السامية.. ومن بعده، تحريك طاقتها التي تبدو خامدة، وحثها على السير نحو هدفها التاريخي من جديد بتحفيز جيد، وبأنشطة وفعاليات منضبطة ومنظمة.

والحمية الإنسانية، وطاقة تعلق فوق ما هو معتاد. وقد تكون هذه الأحوال المدلّمة أحياناً ميلاداً تاريخياً للأمة، بمخططاتها، ومشاريعها، واستراتيجياتها، وعقولها الممتازة التي تنتج هذه المطلوبات، وممثلها الأبطال الذين جَلّوا عن أن يجيوا أعمارهم، فنذروها لإحياء غيرهم.

ولذلك، نؤمن - في هذا الوقت الذي نرجو فيه أن نكون أمة عظيمة - بضرورة منهج ومشروع بعقلية محترفة ومتخصصة، بل قبل ذلك، بضرورة إعداد أجيال مثالية تحمل وتستهدف لإنشاء أمة عظيمة. إن تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإن كان في دائرة صغيرة، وظهور نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورهم وأوطانهم مهاجرين كأموج البحر إلى أرجاء الأرض المختلفة، بروحية الكفاح الوطني (حرب الاستقلال)، وسعيهم في زرع فسائل روح الأمة في كل مكان، ووضعهم للبنات الأولى لثغور حلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة، وعرضهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلّوا، وكدهم من أجل إبراز موقع أمتنا الموروث من أعماق التاريخ لتملأ مقعدها الشاغر اللاتق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدر معين، هي أمثلة شاخصة ومهمة، تُرينا ما يمكن أن تفعله الأجيال التي تعلق قلبها بفكر سام إلى حد العشق.

وإن هذه الكوادر "المحتسبة" التي قد تجوع أحياناً وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوماً بالإيمان والأمل والعزم، وكأهم المعينون بوصف محمد عاكف: "مستعينون بالله، متشبثون بالسعي، مشدودون إلى الظفر"، هؤلاء حلّوا بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، معضلات تعجز دول كبيرة أن تحلها بأنشطة "لوبياتها" وصرفها الملايين على إعلاناتها. وينبغي أن لا يستهان بهذا "التكوين" الباهر، ولا يعلل بسلسلة الصدّف، ولا يُربط بمكانة

تعتري طبع الإنسان. فأحياناً تولّد أمورٌ شروخاً واسعة في حياتنا الفكرية وفي حركتنا وعملنا الحركي، مثل تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحى بالثقة فتُوجد التذبذب والشك، أو مثل ضعف قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحياناً إلى درجة العجز عن رؤية مواطني أقدامهم، بله إصبارهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعف الأمة عن الإحاطة بواقع حالها أو نقص التحفيز، أو تقديم التفكير الميكافيلي والبراغماتي أمام القيم الدينية وقيم الأمة. ونحن الآن في مواجهة سلسلة من الأزمات المختلفة الناشئة من بيئة مفعمة بهذه المحاذير جميعاً. وحالنا يوحي بإمكان انفلات الذات وإرسالها، والوقوع في تبثر وتشتت يؤدي بنا إلى الانحلال والذوبان. ولا شك أن هذا يثير شهية العدو، ويخذل حماس الصديق. بل المهول هو احتمال أن نُصرع ونسقط - حفظنا الله تعالى - إذا تماهنا في سد الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية المتوسعة في حياة الأمة. وحتى نجنب أمتنا من الفطائع والفواجع التي لا مفر منها في حال سقوطنا، فمن الضرورة والحثم أن نسلخ ونترجح تماماً عن التيه في انعدام الهدف، وقابلية الانصياع للاستعمار والاستغلال، ونفسية العيش تحت الوصاية، وهي الحالات اللاصقة بدول العالم الثالث... فتتشبث بالسعي مستعينين بالله تعالى، ونستهدي التوفيق الإلهي في وحدة الأمة وتوافقها، ثم نركز على كينونتنا الذاتية ونتعقب أهدافنا وغاياتنا السامية.

ومن الظاهر عياناً وبيانياً، أننا لن نغلب بمشاريع سبق أن تعودناها، على كل هذه السليبيات في مرحلة عاصفة تواجهنا فيها مهاوٍ سحيقة متشابكة، وجسور منهدة وطرق منقطعة، وبأمة متعبة. محن متنوعة لم نشهدها في تاريخنا إلا قليلاً. إن مثل هذه الأحوال غير الاعتيادية، تستدعي همماً حميات تتجاوز المهمة



ونفسه في ثلاث قارات. وكانت المقومات عينها وراء الأمل العثماني الكبير، فهي التي استنهضت عشيرة من هضاب آسيا، ودفعتها للسير إلى الأناضول، لتقيم دولة عظمى... وأيضاً هي التي كانت في عقول أبطال الكفاح الوطني (حرب الاستقلال). وكذلك جموع الهند الذين لم يبدُ على سيماهم أمارات الحياة في أواسط القرن العشرين، فحركهم إلى الحرية والاستقلال حماس عظيم؛ كان أساس قوته إيمان ذلك الشعب وأمله، وفكرة أن يجيوا ويبقوا بذاتهم ومقوماتهم.

لكن ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفاً منضبطاً بضوابط معينة، ومرتبطة بنظام معين. فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعدَّ العدة قبل البدء بإنشاء صرح، فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام آحادها فيما بينها ومشاركتها في جماله ومظهره. وهل يتحقق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلها؟! إنَّ المهم والحملات الفردية، إنَّ لم تنضبط بالحركة المشتركة ولم تنظم تنظيمًا حسنًا، ستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة... فيختل النظام، وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقاً، ينبغي أن لا تُطفأ جذوة طاقة فردية البتة، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس، تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجّه إلى مجرى الغاية المأمولة المعينة والهدف المنشود، ويزاح خُلق المصادمة في النفوس ويقرّر عقل التوافق بدلاً عنه، بل الأحسن أن يُطَبِّع كل إنسان بهذا الطبع.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا: إن الأديان كلها جاءت لتثبّت هذا الفهم خاصة، ضمن أبعاد تبليغاتها الشاسعة؛ فقد فُرض كل دين ضوابط وأنظمة على القدرات الفردية، فصارت مقومات مهمة في توجيه القوة الموجودة المنشدة إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبارشاد الدين يوازن كل فرد حرّيته وفعالياته الشخصية، مع حركة المجتمع وفعاليتها؛ فيتصرف حراً موفياً لإرادته حقها من جهة، ومحافظاً على تكامل الحركة مع الآخرين من جهة أخرى، فينجح في تحقيق الأمرين معاً، كالنجم التابع في موقعه، يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت عينه. ولا يغترّ أحد بحيوية الحركات ونشاطها كلاً

الدول المهاجر إليها. بل السر في هذه الحركة الرائعة هو توجه القلوب المخلصة إلى الله تعالى، ومنَّ الله تعالى بزيادة الإحسان على هذه الأمة التي توارثت العز من أعماق تاريخها. نعم، يناط النجاح في هذا العمل - كما في كل نجاح - بالهمة والحمية من الصدور النابضة بالإخلاص، وبالوفاء من الأمة، وبالتوفيق من الله تعالى. إن الأبناء المضحين اللاتقين بهذه الأمة الوفية، يهرعون أفواجا باسم وطن المستقبل الكبير إلى الغربية والحسرة والحرمان، وفي أيديهم مشاعل العلم والعرفان، كالذين يتحدّون اليأس والعجز في أشد محن التاريخ، وكالحملات الباهرة المتدفقة في تدفق فجائي، والمتعرعة بجلوات الغنى والوجود على الرغم من الفقر والعدم، وكالجيوش المتقدمة إلى الموت في سرور وانسراح، على وقع الأناشيد الوطنية، على رغم أنف التصييق والافتراء والاهتمام مثلما يحصل اليوم. هؤلاء يوفون منذ سنوات من غير توان أو فتور، برسالة مهمة لحساب أمتنا وشعبنا وبلدنا، ونبع قوتهم التي لا تنفد هو إيمانهم، ووقود مشاعل عشقهم وحماسهم الذي لا يجمد هو هدفهم السامي وفكرهم وروح الأمة.

إن الذين يجهلون أهمية هاتين المقومتين الحيويتين، ولا يعقلون القدرة التي يوجدها الإيمان والأهداف السامية في الإنسان فيتساءلون في شك ممزوج بالحقد والبغض أحياناً، وفي رفض غاضب متشرب بالهذيان أحياناً: "كيف يحصل هذا كله؟ ما مصلحتهم في هذا؟" يفضحون أنفسهم ويظهرون مدى حرمانهم من الأهداف والأفكار السامية.

ومن المسلم به، أن الفكر والهدف السامي نشيد يحرك الأجيال المثالية، و"مولد طاقة" يشحن طاقتهم الدائمة، ومنبع صافٍ يمد عشقهم وحماسهم، وبمشاعر طافحة يرفع إلى السماء نداء مصيرهم. وبفضل هذا الفكر السامي، تصل المساعي المتوسعة باطراد إلى حد التحول إلى حركة مشتركة، وإلى جذور ومستويات مختلفة، وبطبيعة الحال إلى نسق مختلف، فيكون حتماً عليها أن تجد مجرى لتيارها حتى إن اضطرت إلى احتياح القمم، لمواصلة المسيرة.

ففي عصور تحبط الإنسانية في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلّة من المجاهدين الأوائل المنبثقة من صدر الصحراء هو إيمانهم وغايتهم المأمولة في تفرغ إلهامات إيمانهم الفواررة في قلوبهم أبداً إلى صدور الآخرين. فبحملة واحدة بدلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل





ينبغي أن يكون الهدف السامي الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفاً منضبطاً بضوابط معينة، ومرتبطة بنظام معين. فإن كنت مهندساً، فعليك أن تُعدّ العدة قبل البدء بإنشاء صرح، فتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام أحادها فيما بينها ومشاركتها في جماله ومظهره.

لحركة المجتمع المشتركة بكل شرائحه بدواً وحضراً، ومثقفين وحرفيين، ومعلمين وطلبة، وخطباء ومستمعين... مساحات مشتركة وقواسم مشتركة مثل السعي لجعل أمتنا عنصراً مهماً في التوازن الدولي، والعزم والإصرار على حمل الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات، والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منع حصول الثغرات العقلية والمنطقية والحسية أثناء التحرك الجماعي، واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث وسائل للسمو العمودي إلى الله تعالى، وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائماً.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيحافظون على حماسهم وحيويتهم، وستجرى الفعاليات والأنشطة الجماعية بانسجام ووثام، وسيستفاد من الوقت والإمكانات بأجدى وسائل التحفيز السريعة، وستبقى أبواب التجدد مفتوحة أبداً بفضل السماح للتفكير بالتوسع. ولتحقيق هذا كله، لا حاجة إلى تلقين المسلم فهماً جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين من جديد. وإنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهمية الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية. لكن المؤلم حقا أن الأقوال في هذه المسألة مختلفة اختلافاً بيناً إلى درجة تحير العقول... فهوى الرغبات يتقدم العقل ويقيم في ظل الخيمة الإلهية، والأحاسيس تصدر أحكاماً من فوق عرش المنطق. ونحن نعرف هذا الانحراف في نعر من محترفي الإنكار والإلحاد والكفار المدمنين على التحرش بالدين، لكن قد يقع فيه أيضاً بعض المتعصبين المحرومين من الحياة القلبية والروحية من الذين يجسبون أنفسهم متدينين. هذان الصنفان مختلفان فيما بينهما، لكنهما كفرسي رهان في الإضرار بالأمة والوطن والدين.

على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاء التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا تسند بعضها بعضاً في خط المقصود العام، فتولد أحياناً نتائج أشد سوءاً من السكون والجمود. خلاصة القول: إن السكون والجمود، كذلك الفوضى في الحركة، كلاهما موت. والمحتوم على الأمم التي تضععت نفوس أفرادها بمثل هذا الموت، أن تُغلب وتُطرَد إلى خارج مسرح التاريخ. ومن دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان الأنانية، وثقة الإنسان بنفسه، وقصور فهمه لحدود قدرته، وقصور إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعاليات المشتركة والوفاء والاتفاق في جلب العناية الإلهية. كذلك، قد تتسبب الشهرة والمنصب والطموحات الشخصية والنوازع الأخرى في تقدّم الملاحظات الفردية إلى الصف الأممي. وقد يظهر بمثل هذه الملاحظات منحوسون نسوا مقاصدهم وبيئتهم تماماً، وخنعوا لمطالب الأكل والشرب والنوم وطرح الفضلات، بعدما كانوا في صف الخدمة-الدعوة يهتفون: "في سبيل حب الدعوة!" ويلهثون بأنفاس تنقطع شهيقاً وزفيراً طلباً لرضا الله تعالى. إن من ينسى المقصود، ويضع الغاية المنشودة، سيسقط-بالضرورة-كائناً من كان- في شبك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق الخدمة-الدعوة، وتنطفئ عنده مشاعر العيش من أجل الآخرين. من هذه الزاوية، يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمره الرغبة في إحياء الآخرين مرة أخرى في أرواح أفراد الأمة، وفرز الأفكار الغربية المندسة بين "الأمة" وأهدافها السامية.. ومن بعده، تحريك طاقتها التي تبدو خامدة، وحثها على السير نحو هدفها التاريخي من جديد بتحفيز جيد، وبأنشطة وفعاليات منضبطة ومنظمة. ومن الضروري لمثل هذه الحركة تجديد معالم المساحات المشتركة التي تعد محوراً





# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية  
www.hiramagazine.com

## حمالة الغيوب

بَشْرِي... بَشْرِي...

يا آتيةً من سماء الغيب!

يا خَفَّاقَةَ الجناحين!

بالآمالِ تحفِّقين،

مع خفق جناحك تحفق القلوب

وتطرب الأرواح...

فيا للبشرى التي جئتِ بها تبشِّرين،

ويا للرسالة التي إلينا تحملين!..

\* \* \*

الصنفان كلاهما لا يوقر روح الدين، وكلاهما لا يتسامح في التفكير الحر، وكلاهما محتوم على قلبه، فلا يعي فكرة المشاركة والتقاسم. رأس ما همم الأعز هو الفرية والزور والتشويه، وأجود فنوفهم هو النميمة واللمز على من لا يحسبونه منهم... لا يهمهم إلأم بلجؤون، ولا على من يستندون؛ فالمهم أن يهضموا ويأكلوا من لا يستسيغون وجوده. والحقيقة أن حرصهم وسعيهم في هذه المسألة عظيم وحثيث إلى درجة أظن أنهم لو صرفوه فيما يليق لعَمَّروا العالم كله.

وبدهي في هذه الأجواء المظلمة الخانقة، وفي ميدان الذين لا يفكرون ولا يصرون ولا يعلمون، لن توجد الحياة الفكرية والعشق إلى الحقيقة والتحري في سبيل العلم والبحث... وإن وجدت، فلن تنمو وتتطور، وإن نمت وتطورت فلن تغادر عالم الأحلام والفتنازيا. وإن حالنا المنكسر البائس شاهد على ما نقول بألف لسان، وليس بلسان واحد. لكن الحال يقتضي في الواقع أن تكون عقلية أمتنا عقلية إعمار وإنشاء... وأن ننجو من هذه الحالة التي نتخبط فيها والتي نعاني فيها من فقر التفكير وغياب الأهداف. ونحن اليوم بحاجة ماسة -قبل كل شيء- إلى غاية مأمولة سامية بعيدة المرام، هي انبعاثنا بروؤيتنا الحضارية وبتقافتنا الذاتية. ولا بد لأمتنا أن تصبر على أوجاع وعذاب وزمان يسلب العاقل عقله ويدع الحليم حيران، من أجل الارتقاء إلى العلياء كصرح سامق يرتكز على أركان القيم التاريخية لأمتنا. إن مراعاة سير تطور الحوادث ضمن طبائعها، تتعلق بسعة المعرفة بهذه الطبيعة. القرآن الكريم يخاطب سيدنا ﷺ فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ (التوبة: ٤٢)، فيسري عنه ﷺ ويؤبِّخ المتخلفين المتهاوين في الطريق. وحسب المنظور الإسلامي، يُعدُّ المقصود حاصلًا بنوال الهدف البدهي لكل حركة أو حملة، وهو رضی الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجة الخدمات المقدمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية، ومحض وسائل تؤدي إلى الهدف الحقيقي. ■

(\*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

# مسارات العمران من خلال القرآن

أ.د. زيد بوشعراء \*

أن تعمر جماعة من الناس بقعة من الأرض  
معناه أن تحولها إلى مكان حي مستجمع  
لمقومات الحياة الجماعية المنظمة المنتجة الآمنة  
المستقرة. وذلك بما تؤسس فيه من أنواع البنيان الذي يجلب لها  
وينمي كل ما تعتقده مصلحة، ويدراً عنها ويزيل كل ما تظنه  
مفسدة من مساكن وأحياء وأسوار وحصون وقناطر وطرقات  
وأسواق وبيساتين وسدود ومصانع وحمامات.. ونحو ذلك من  
المرافق الحيوية اللازمة لأي تمدن، وكذا بما تنمي فيه من نسلها  
ووجودها البشري ومواردها الحيوانية والزراعية. ويلحق بذلك  
مجازاً ما كان من أسبابه من العلم والتخطيط والتنظيم والقوة،

أ



وما كان من ثمراته من قدرة على صناعة الأجهزة التي يحتاج إليها العمران والحياة العمرانية وما إلى ذلك.

كل ما أنجزه الناس قبل مجيء الإسلام، مما كان من هذا القبيل وبهذا القدر، القرآن عده عمراناً. وقد تفاوتت الجماعات البشرية فيه كمّاً ونوعاً بحسب تفاوتها فيما أوتيت من الخيرة الفنية والعلم الدنيوي والقوة السلطانية، فمنها من كانت أكثر إعماراً كما قال الله تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم: ٩)، وفيه إشارة إلى أن الـ"أشد قوة" كان أكثر إعماراً. ومنها من بلغ العمران عندها الذروة في الجمال والتنوع فكانت فارحة بارعة في صناعة العمران. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ (يونس: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَأَ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤)، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣)، وقوله في بعض الأمم إنها كانت: ﴿أَحْسَنُ أَنَاثًا وَرَثًا﴾ (مريم: ٧٤)، أي يعيشون في حال أفضل من حال العرب أحواد تجهيزاً وأحسن منظراً من الناحية العمرانية.

ووصف القرآن لأعمالهم تلك بأنها عمارة للأرض لا يلزم منه أن ما عده ليس من العمران، بل كل إنجاز حضاري لاحق جعلت به المجتمعات حياتها آمنة وأسهل وأجمل وأرفه مما هو ثمرة لتطور علومها وخبراتها وقدراتها وأذواقها هو أولى شيء بالدخول في مفهوم العمران.

وإن عد القرآن إنجازات غير المؤمنين عمراناً يعني أن مفهوم العمران مفهوم محايد وأنه لا يشترط في تسمية الشيء عمراناً أن يكون سالماً من المكدرات الفكرية والأخلاقية. وإن كان العمران بعد ذلك قابلاً لأن ينعت بالصلاح أو بالفساد.

على أن هذا العمران ما كان الإنسان لينجز منه شيئاً لولا أن الله تعالى هبأ له أسبابه.

### تهيئة الله لأسباب العمران

هبأ الله للإنسان كل ما يتوقف عليه العمران.

**أ- جعل في الأرض قابلية للعمران:** فجعلها أولاً صالحة لاستقبال ما يمكن أن يحدته الإنسان من العمارة، وذلك بما ألقى فيها من الجبال التي تحفظ استقرار قشرتها: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥)، وكذلك بما قدر فيها من الحاذية التي تثبت البنیان، فكانت بذلك قراراً: ﴿وَأَمَّنْ جَعَلَ

الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (النمل: ٦١)، ولولا ذلك ما استقرت على الأرض لبنة فوق أخرى.

وجعل الأرض أيضاً طوع إرادة الإنسان ذلولاً له صالحة لإنتاج ما يحتاج إليه: ﴿وَبَارَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥).

**ب- يسر الله للإنسان حركته في الأرض:** فجعل النجوم للإنسان علامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٩٧).

وهبأ للإنسان المركب الذي يحمله ويحمل أثقاله إلى أبعد المواطن؛ هبأ له المركب الطبيعي الذي هو الدواب: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَعُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ٧-٨)، وهبأ له المركب الصناعي وهو السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بوحي من ربه سبحانه فكانت أول سفينة في تاريخ البشرية: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا﴾ (المؤمنون: ٢٧). وهذا يعني أن حركة الإنسان في الأرض يسرها الله بخلقها وبوجيه معاً فحمله براً وبحراً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وبين أن حملهم إياهم كان بالمركبين المذكورين فقال في الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكَ تُحْمَلُونَ﴾ (غافر: ٨٠). وبذلك استطاع الإنسان في وقت مبكر من وجوده على الأرض أن يخرج من العزلة ويكتشف الأرض كلها قاراتها وبحارها ويستفيد مما جعل الله له فيها من زينة وثروات.

**ج- جعل الله في الأرض الحديد،** أنزله من السماء، ليكون للإنسان وسيلة من أهم وسائل إنشاء العمران وحمايته: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥).

**د- وباجملة فقد سخر الله له سائر ما في الكون** ليوظفه لمصلحته إنشاء لها وحفظاً وتنمية وتطويراً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الحج: ١٣).

**هـ- وجعل الله الإنسان مهياً لإنشاء العمران:**

• خلق الله في الإنسان حاجات وشهوات تدفعه إلى إشباعها وتلبيتها فينتج عن السعي لإشباعها إعمار الأرض.

• وخلق فيه ذوقاً وإحساساً بالجمال يتمكن به أن يضيء مسحة من الحسن والبهاء على عمرانه.

• وخلق فيه عقلاً يقدر به على اكتشاف الكون وقوانين الحياة واكتساب العلم الذي موجهه يستطيع التحرك في أرجاء السماوات وتسخير ما في الكون لعمارة الأرض: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الملك: ٣٣).

• وخلق فيه قدرة بدنية يستطيع بها تحمل أتعاب الإعمار ومشاق تحقيق المصالح.

و- ولما كانت مصالح الإنسان كثيرة لا يستطيع تحقيقها وحده فقد جعل الله بين الناس تفاوتاً في القدرات وتنوعاً في المواهب يحتم اختصاص كل صنف وطبقة منهم في نوع من العمل، ويجعل بينهم تكاملاً في الوظائف الحياتية: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزحرف: ٣٢)، ولولا ذلك ما كان ثمة إمكان للعمران.

ز- ولما كان العمران لا يتم إلا بالتنظيم وكان التنظيم لا يتم إلا بالملك، فقد جعل الله في الناس قبولاً للملك، وهو تديريهم لأموالهم تحت قوة سلطانية قاهرة تجلب لهم مصالحهم العامة وتدرأ عنهم شرور أنفسهم وشرور سواهم.

هذه أهم أسباب العمران، وهي أسباب ضرورية وليس للإنسان يد في إيجادها ولا يملك أن يدعي ذلك، بل لما جاء الإنسان إلى الوجود وجد الله قد أعد له كل شيء؛ المواد والدوافع والأذواق والقدرات والعقل والسنن الكونية والسنن الاجتماعية.. وإنما بقي له بعد ذلك أن يوظفها توظيفا تركيبيا، ويستثمرها في إنشاء ما يقدر عليه من العمران في كل زمان ومكان. وبذلك كان الإنسان -المؤمن والكافر سواء- عامراً للأرض وهو ما يدل عليه قوله تعالى على لسان صالح: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

لما كان الإنسان بطبيعته قد ينزع إلى الخير وإلى الشر ويدرك بعض مصالح نفسه دون بعض، فإن ما أتاه الله من أسباب العمران تلك كان منذ البداية محتملاً لأن يوظفه الإنسان في الشر ولأن يوظفه في الخير، كما كان غير كاف لتلبية كل حاجات الإنسان. ولذلك فإن الله تعالى إلى جانب ما قدره للإنسان من أسباب، قد زوده منذ خلقه بما يجعل عمرانه عمرانا صالحاً، فأرسل إليه رسله بالهدى الذي يؤهله لتسخير تلك الأسباب في

تلبية كل حاجاته المشروعة، ولتحقيق السعادة التامة الشاملة التي علمها وأرادها له خالقه اللطيف الخبير وبارئه الرحيم الودود، إلا أن بني آدم لم يستجيبوا كلهم لهذا العرض، فافترقوا في موقفهم من الوحي إلى فريقين فسار العمران بذلك مسارين:

### المسار العمراني الأول

سار العمران مساراً مادياً أجوف مختلاً لما أشرف عليه فريق من بني آدم اختاروا أن يأخذوا بأسباب العمران بعيداً عن هدى الله، وأصروا بعد نزول الوحي إليهم أن يبقوا متعاملين مع أسباب العمران الميسرة لهم تعاملًا حراً لا يتقيد بأي قيد من دين.

هذا الفريق من الناس لم يؤمن بالله واليوم الآخر وجعل الدنيا همه الوحيد ومبلغ علمه وغاية سعيه، وتوسل بأسباب العمران لنيل شهواته (شهوة المال وشهوة النساء وشهوة الجاه)، ومع ذلك لم يحل الله بينهم وبين ما يشتهون، بل فسح لهم المجال ليحققوا لأنفسهم ما يظنون أنه سعادة وخلي بينهم وبين أن يذوقوا نتائج اختيارهم العمراني.. ذلك ما قضاه الله في الأزل وذكره في كتابه فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ (الإسراء: ١٨)، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ (هود: ١٥)، بمعنى أن من أحب نيل مآربه من غير واسطة الدين ومن غير تحمل لأي كلفة دينية لا يؤمن بها، فإن الله تعالى يحقق له ما يتمناه كاملاً غير منقوص. وقد سرد القرآن من هذا المسار نماذج منها:

**النموذج الأول:** هو عمران "عاد" الذي أشار القرآن إلى أبرز مظاهره فيما حكاه من قول هود لـ "عاد": ﴿أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ \* وَتَخْذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ \* وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ \* وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ \* أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ \* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء: ١٢٨-١٣٤)، وقوله لهم أيضاً: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢)، وهكذا فقد عرف "عاد" عمرانياً بما يلي:

- بناء علامات تدل على الطريق ﴿أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً﴾.
- بناء صهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء يشرب منها المسافرون ويتنفع منها الحاضرون في وقت قلة المطر ﴿وَتَخْذُونَ مَصَانِعَ﴾.
- تنمية الموارد البشرية والحيوانية والزراعية ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ \* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.



**النموذج الثاني:** هو عمران "عمود" المشتهر بالبناء المتميز، قال لهم صالح: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

وقال لهم أيضا: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هُضَيْمٌ﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء: ١٤٦-١٤٩). فقد كانوا فارحين بمعنى عارفين حذيقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية. نحتوا في الجبال بيوتا يسكنونها في الشتاء هروبا من أخطار السيول، واتخذوا في السهول قصورا ينزلون للسكن بها صيفاً.

**النموذج الثالث:** هو عمران "سبأ". فلقد كانت مدينتهم "مأرب" محفوفة بالجنان عن اليمين والشمال يصطافون فيها ويستثمرونها، وكان ذلك بسبب تدبير أهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في "مأرب"، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥).

**النموذج الرابع:** هو عمران "مدين" المشتهر بالرخاء الاقتصادي حتى قال لهم شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ (هود: ٨٤)، أي إنكم في حال حسنة تجعلكم في غنى عن التطفيف.

هذا ويذكر القرآن في مواطن أخرى أنواعاً عامة من العمران دون أن ينسبها إلى أقوام بعينهم، فيذكر أن الله فتح لأهم كل أبواب التمتع: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤).

كما يحكي أن الله أتى أقواماً الأمن من أعدائهم والرخاء في اقتصادهم: ﴿وَوَضَّرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ (النحل: ١١٢).

ولقد كان وحي الله عبر التاريخ، يتبع عمران هؤلاء الأقوام من جهتين اثنتين؛ من جهة أولى كان يدي لهم ملاحظاته النقدية إزاءه، ومن جهة ثانية كان يدهم على العمران الذي هو أرشد.

فقد كان رسل الله -عليهم السلام- يقبحون عمرانهم من حيث ما تأسس عليه من دوافع بعيدة عن الرشد وما شابه من شوائب الكفر بأنعم الله، والظلم لعباد الله والفساد في أرض الله، ويطلبون منهم تخليص عمرانهم منها. ثم كانوا في المقابل يعدوهم إن هم استجابوا أن يحفظ الله عليهم عمرانهم ويزيدهم من أسبابه ويبارك لهم فيه، وبعبارة أخرى كانوا يعرضون عليهم عمراناً أفضل من عمرانهم.

فعلى سبيل المثال، ما بنته "عاد" من علامات على الطرق خارج مدها، كان عملاً عبثياً لم تدع إليه حاجة للمسافرين، ولعلها إنما أرادت به أن يكون آية دالة على تفوقها ومبلغ قدرتها ﴿أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وما اتخذته "عاد" أيضاً من صهاريج يتجمع فيها ماء المطر كي تستعمله في مقاومة الفناء زمن القحط، قد أخطأت به الظن وضلت الطريق وضيعت الجهد والمال، واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأن الماء الذي أمسكوه إنما هو ماء آسن ليس بالعذب، وقليل لا يمكن أن ينفع كل الناس ولا كل الأرض. بينما كان يمكنهم -لو استجابوا- أن يحصلوا على ماء السماء الذي هو ماء طهور ومبارك، ويرزقوه بالأقدار الكافية وفي الأوقات المناسبة والأراضي المحتاجة، ويعطون معه قوة إضافية تجعلهم أكثر إعماراً وأمناً، وقد قال لهم هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢).

وكذلك ما نحتته "عمود" من البيوت في الجبال فإن القرآن سجل عليه ملاحظتين؛ إحداهما تنصيصه على حذقهم في ذلك النحت: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء: ١٤٩)، وثانيهما ذمه لباعثهم وهو اعتقادهم أن لجوعهم إلى هذه الوسيلة سيؤمّنهم من كل الأخطار: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٢)،

لكن ذلك لم ينفعهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْحِكِينَ﴾ (الحجر: ٨٣). ومن عمرووا الأرض رافضين للوحي غير قابلين لعروض الأنبياء تنوعت مصائر عمرانهم:

**المصير الأول** هو تدمير العمران. وقد يدمر على من تحته إذا كان بنيان قوم مكروا لدين الله وأنبياؤه، وفيه قال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمُ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤).

وحصد الزرع؛ قطعه من منابته وهو معنى الاستئصال والتدمير للعمران بما يظن به الناظر كأن الأرض لم تعمر من قبل: ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾. لم تعمر بالزرع، يقال غني المكان إذا عمر ومنه المعنى للمكان المأهول.



فقال في سبأ: ﴿فَاعْرُضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنِيهِمْ حَتَّىٰ نِيَّ دَوَاتِي أَكَلِ خَمْطٍ وَاتِّلِ وَشْيَءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ: ١٦).

**المصير الثاني** هو إخلاء العمران. فيصبح حرباً معطلاً عن منفعته التي شيد لأجلها، بحيث يهلك الله صانعي العمران ويذر عمرانهم غير مستعمل من بعدهم. وهذا مصير عمران من استعجل عذاب الله، وأمن مكر الله واستهزأ بآياته، ومثاله ما جرى لـ"عاد" الذين أرسل الله عليهم ريحاً: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِيْنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٥).

ومثاله أيضاً ما جرى لـ"ثمود" كما قال الله تعالى: ﴿فَتَلَكَّ يَبُوتُُهُمْ حَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢)، ومثال أقوام آخرين ممن طغوا في أرض الله وقال فيهم الله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِيْنُهُمْ لَمَّ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨).

**المصير الثالث** هو إراث العمران لغير صانعيه وهو مصير عمران الناكثين لعهودهم. ويمثل له القرآن بمصير بني قريظة من اليهود الذين خانوا عهدهم مع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقال فيهم الله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا \* وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْفُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٦-٢٧). وقال عن فرعون وملئه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ \* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٨).

على أن سنة الله قد جرت بأن لا يصير الذين ظلموا ولا يصير عمرانهم إلى إحدى هذه المصائر الثلاث، إلا بعد إنذار يتبعه إملاء كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (الشعراء: ٢٠٨)، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ (الحج: ٤٠). ويشمل إملاء الله لهم أن يسلب عليهم البأساء والضراء لعلهم يرجعون، ثم أن يجمعهم إلى أجل مسمى إذا تمادوا في غيهم تنفيذاً لوعده بأن لا يجرم مريدي الدنيا من الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ \* فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ \* فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٢-٤٥).

### المسار العمراني الثاني

لو شاء الله تعالى لجعل العمران إنجازاً خاصاً بالكافرين ولكنه أي، لأنه قصد أن يبقى في الأرض إيمان. ولو أنه فعل لاعتقد الناس أن لا عمران إلا مع الكفر، ولتركوا الإيمان جملة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٤). قال ابن عاشور تعقيماً على تفسير ابن عباس للآية: "ولولا أن يصير الناس كفاراً لخصصنا الكافرين بالمال والرفاهية، وتركنا المسلمين لما ادخرنا لهم في الآخرة، فيحسب ضعفاء العقول أن للكفر أثراً في حصول المال جعله الله جزاء لمن سماهم الكافرين، فيتبعوا دين



الكفر لتخليهم الملازمة بين سعادة العيش وبين الكفر. وقد كان الناس في الأجيال الأولى أصحاب أوهام وأغلاط يجعلون للمقارنة حكم التسبب. ولذلك كان للمؤمنين أيضاً عمراهم لينفصل العمران عن أن يكون ثمرة كفر أو إيمان. ومن ثم قال الله تعالى: ﴿كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿النمل: ٢٠-٢١﴾. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴿الإسراء: ٢٠-٢١﴾. فقد سار العمران إذن مساراً ثانياً، إلا أنه كان مساراً راشداً. لأنه كان بقيادة "قوم عابدين" اتبعوا هدى الله وجعلوه دليل إعمارهم ومنهاج تديبرهم. ومما حكى القرآن فيه من النماذج نموذج عمران سليمان عليهما السلام ونموذج عمران ذي القرنين..

أما سليمان عليه السلام فقد أوتي علم الحضارة والعمران، وهو ما يشير إليه قوله تعالى على لسان ملاً سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿النمل: ٤٢﴾. قال ابن عاشور: "أرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علمه الله سليمان ورجال مملكته ويشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه، فقد كانوا أهل معرفة أنشأوا بها حضارة مبهتة". ومع هذا العلم أوتي سليمان من كل أسباب العمران ومظاهره: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿النمل: ١٦﴾. وكان مما أوتيته تقدم صناعي فائق وإبداع بنائي باهر.

يذكر القرآن من تقدمه الصناعي، أن الله تعالى يسر له إذابة النحاس وإسالته له على نحو دائم من عيون معينة بما يمكنه من صناعة ما تحتاج إليه أمته؛ من الأسلحة والدرق والآنية والأثاث وسائر الأجهزة.. قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ ﴿سبأ: ١٢﴾.

ومن تقدمه في البنيان تكفي الصورة المثيرة التي ساقها القرآن مقترنة بدخول ملكة سبأ على سليمان: ﴿فَقِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ ﴿النمل: ٤٤﴾.

فقد كانت أرضية الصرح من زجاج سميك تحته ماء فيه سمك، وهذا "من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء".

وقد حكى القرآن أن سليمان عليه السلام انتقل من طور العمران المتميز بالإبداع والحسن والمتانة والوفرة والمحفوظ بالعدل والمزین بالرحمة إلى طور "ما بعد العمران"، فذكر تشوفه لأن يوتى أقصى ما يمكن من السرعة في إنجاز الخدمات فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿قال عفریت من الجن أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامک وانی علیہ لقوی آمین﴾

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ﴿النمل: ٣٨-٤٠﴾.

هذا المشار إليه من عمران سليمان - وإن كان بعضه معدوداً من خصوصياته - يشير إلى أن ابتغاه أمر جائز في ذاته، وأن المؤمنين هم أولى الناس بأن ييسر الله لهم امتلاك بعضه أو ما يقاربه من الوسائل المتقدمة المعينة على تحقيق الجودة والبسطة في العمارة، والوفرة والتنوع في الإنتاج، والسرعة والسهولة في الإنجاز.

وأما ذو القرنين فقد زوده الله بأسباب العمران ووسائل التصرف في الأرض فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿الكهف: ٨٤﴾. وقد استعمل ما أوتي من تلك الأسباب في القضاء على الظلم حيثما وجدته إما بمعاينة الظالمين أو بكف أيديهم عن المستضعفين، فجاب الأرض شرقاً وغرباً، لا ليستعبد شعوباً لصالح لنفسه أو شعبه، ولا ليستغل خيراتهم لأجل مجد نفسه أو رفاهية فنته، ولكن ليملاً الأرض رحمة وعدلاً كما ملئت عذاباً وجوراً لا يسأل الناس خلالها أجراً على اتعابه، بل لا يقبل منهم مقابلاً مالياً لما يسدي إليهم من النصرة والحماية.

ولذلك كانت إنجازاته العمرانية إنجازات نافعة راشدة لا عبث فيها ولا غي. وكان منها توظيفه ما أوتيته من خبرة صناعية وقوة سلطانية في بناء سد منيع من حديد ونحاس يقي قوما ضعفاء من عدوان يأجوج ومأجوج، ويمنع من إفسادهم في الأرض. فكان عمران هذا عمراناً وقائياً حمى عمراناً قائماً من تخريب المخربين، وكان إلى ذلك عمراناً جميلاً. فقد جاء في بعض الروايات أن السد كان "كالبرد المحير طريقة سوداء وطريقة حمراء". قال

القرآن في عمله العظيم هذا: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ ﴿قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ ﴿أتوني زبير الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال أنضحوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ ﴿فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً﴾ ﴿الكهف: ٩٢-٩٧﴾. ■

(٥) أستاذ في جامعة محمد الأول، وجامعة ابن طفيل / المغرب.

# الشعر في خدمة القرآن



حاز الشعر عند أهل الجزيرة عناية خاصة على امتداد مختلف المراحل الثقافية. وقد جرى تداوله دون منهج منظم قبل الإسلام. لكن الحاجة الدينية الماسمة اقتضت تحول الشعر إلى ثروة لغوية توظف في

ح

د. محمد جكيب \* ❖

تفسير القرآن وفهم معانيه.

كان الشعر عند العرب منذ قدم عصوره يتناقل مشافهة اعتمادا على الذاكرة، وكان الناشئ من الشعراء يتتلمذ على شاعر أرسخ قدما، فيختص به ويصبح راويته. وظل الرواة إلى حدود القرن الأول الهجري يتناقلونه اعتمادا على الذاكرة، وكان هذا الفعل مصدرا من مصادر جمعه وتصنيفه. وهو الذي فرض على علماء الشعر وضع قواعد صارمة أخضعوا لها الرواة وما يحفظونه ضمانا لمادة أمينة غير محرفة ولا منحولة. وإذا كان القرن الأول قرن الفتوحات، وتكوين دعائم الدولة وإرساء قواعدها، فإن القرن الثاني كان قرن الاستقرار وبناء دعائم الحضارة وانصراف الناس إلى المجهود الفكري والثقافي المتمثل في جمع مختلف الآثار المعرفية، والتأمل فيها واستخلاص الأصول. ولم يكد القرن الثاني يبلغ ذروته حتى بلغ التدوين أشده، بجهد العلماء الذين قاموا بعمل جليل في إنقاذ الثروة اللغوية، خاصة بعد أن أودت عوادي الزمن بالعديد من حملة هذه المعارف. وإلى ذلك يشير ابن سلام الجمحي في الطبقات بقوله: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون وكتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك

لقد أثمرت الفتوحات  
انضمام غير العرب إلى  
الإسلام، الأمر الذي وسع  
دائرة التفاعل مع القرآن.  
وتلك حاجة غير متأتية إلا  
بمعرفة اللغة العربية التي  
يوجد قدر منها في الشعر.





ذلك أن العنوان صار بؤرة تتشكل من عناصر أساسية هي:

- الإشارة إلى الجنس وهو الشعر وقد يكون اختياراً.
- اسم الشاعر أو الشعراء أو القبيلة.
- اسم الصانع أو المحقق أو الجامع.

### العنوان وظيفته تداولية

والعنوان عندما يرد على هذه الصورة يؤدي وظيفة تداولية، تستهدف المتلقي الباحث عن الشعر بمختلف أصنافه، لذلك فإن عناوين الدواوين تتضمن في الغالب النص على الراوي أو الشارح كأن يقال: "شعر النابغة برواية ابن السكيت" مثلاً، أو "شعر لبيد بن ربيعة عمل أبي عمرو الشيباني أو الأصمعي أو الصولي أو ابن السكيت.. وهكذا". ومعنى ذلك أن الراوي أو الصانع كان يجمع الشعر من مصادر مختلفة مدونة وشفهية، ويقوم بعد ذلك بشرح المفردات، وبيان بعض الحروف الواردة في بعض الروايات. لأن العقلية الإسلامية السائدة آنذاك فرضت عدم الاكتفاء بالتلقي الاعتباري، وأصبحت تبحث عن المعرفة الصافية والمنظمة، بالنظر إلى كونها مادة يتم توظيفها في أمر جليل وهو التعمق في معاني القرآن. لقد أثمرت الفتوحات انضمام غير العرب إلى الإسلام، الأمر الذي وسع دائرة التفاعل مع القرآن. وتلك حاجة غير متأتية إلا بمعرفة اللغة العربية التي يوجد قدر منها في الشعر. ومن هنا فإن بنية العنوان خلال المرحلة تتجسد على هذا التوجه، من خلال التركيز على الشرح والتفسير. ويخصص الباحث التركي المعاصر "فؤاد سزكين" حيزاً من كتابه "تاريخ التراث العربي" لذكر شروح دواوين أغلب الشعراء المعروفين. فعناوين هذه المرحلة تركز على حاجة المتلقين بمختلف مستوياتهم إلى الشروح بالدرجة الأولى، لأن المتلقي جديد لم يعد في حاجة إلى التأكد من صحة الرواية فحسب، بل أصبح في حاجة إلى الزاد اللغوي الضروري الذي يعينه على الفهم الصحيح لأحكام الدين، أو لبيسط ذلك لمن يهمله الأمر، أو الارتقاء في مراتب السلم الاجتماعي، وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها:

- شرح الأعمى الشنتمري (توفي سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م).
- شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي (توفي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م).
- شرح محمد بن إبراهيم بن محمد الحضرمي (توفي سنة ٦٠٩هـ/٢١٢م).

من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير".

عرف هذا القرن العديد من الرواة وعلماء الشعر، كعمر بن العلاء، والمفضل الضبي، وخلف الأحمر، وحماد الراوية، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وابن سلام الجمحي، وأبي سعيد السكري، وأبي عمرو الشيباني، ومحمد بن حبيب، وابن السكيت وغيرهم.. ويظن أن لا سبيل إلى تحديد أسماء من قاموا بجمع الشعر في العصر الأموي، ولكن عدداً ليس قليلاً من العلماء قاموا بذلك، واعتمدوا في جمعه وتدوينه وتنظيمه على قدر مكتوب منه إلى جانب الرواية الشفهية.

### الحفاظ على الثروة الشعرية

إن جهد العلماء الرواة قد حافظ على قدر مهم جداً من الثروة الشعرية، بالاعتكاف على التصنيف والترتيب. ومن السهل تحديد خمسة أتماط حافظت على الشعر وهي:

- ١- الدواوين الفردية التي تخص شاعراً في حد ذاته.
- ٢- المختارات الشعرية، وهي مجموعات تتضمن قصائد أو مقطعات منتخبة من آثار عدد الشعراء.
- ٣- المجموعات الشعرية الخاصة بشعراء قبيلة واحدة.
- ٤- مؤلفات تحت عنوان "طبقات الشعراء"، أو "أخبار الشعراء"، أو "الشعر والشعراء".
- ٥- مؤلفات الثقافة الأدبية العامة تتضمن من جملة ما تتضمن أخباراً عن الشعراء ونماذج من أشعارهم.

فبالنسبة لدواوين الشعراء يورد ابن النديم في الفهرست لائحة من العناوين مبنية وفق نمط موحد، هو ذكر اسم الشاعر مضافاً إلى مصطلح ديوان أو أولاً ثم زيادة مصطلح الصنعة أو العمل إليه مضافاً إلى اسم الصانع وفق الصيغة الآتية: ديوان، واسم الشاعر، وصنعة أو عمل، واسم الشخص الذي عني به.

ونظراً لأن أغلب هذه المصنفات مفقودة، فإننا لا نستطيع معرفة الصياغة الفعلية لبنية العنوان فيها، لكن مصطلحات كـ"الصنعة" و"العمل" بدأت تظهر خلال هذه المرحلة، وهي تشهد على مدى العناية التي أصبح الشعر يحظى بها من جهة التوثيق، والإشارة إلى الصانع لم ترد اعتباطاً وإنما لضرورة التمييز بين الثقافة من العلماء والوضاعين، خاصة بعد انتشار ظاهرة النحل والوضع. فالصنعة توازي التحقيق في الوقت الراهن، ويبين

الذي ذكره الآمدي في كتابه "المؤتلف والمختلف"، حيث أورد مجموعة من أشعار القبائل على غير نمط واحد وفق الصورة الآتية:

النمط	أشعار	كتاب	شعر	مقطعات
العدد	٧	٥٠	٣	١

ترجح هذه الملاحظة وجود هذه الدواوين مكتوبة ومصدرة بعناوين معروفة. وما ذكره الآمدي مرة تحت مصطلح "كتاب" أو مصطلح "شعر" أو "أشعار"، ومرة تحت مصطلح "مقطعات" يؤكد ذلك. ولهذا فالآمدي لم يكن سوى ناقل أمين لهذه العناوين. وأما المختارات الشعرية فلا يمكن إنكار البعد النقدي الذي تنطوي عليه، لارتكازها على التصور النقدي للمصنف، وعلى رؤيته الفنية وتقييمه للإبداع الشعري بصفة عامة وهي كثيرة نذكر منها:

- المعلقات
- المفضليات
- الأصمعيات
- حماسة أبي تمام
- حماسة البحري
- جمهرة أشعار العرب.

ونتوقف عند "المعلقات" لننظر في طبيعة العنوان الذي وازها في مراحل مختلفة. فقد شددت المعلقات الانتباه منذ جمعت أول مرة إلى يومنا هذا. وتأتي الشروح في مقدمة مظاهر الاهتمام الذي عكسه العنوان كما في النماذج الآتية:

- شرح لخمس معلقات، لمحمد بن أحمد بن كيسان، (توفي سنة ٢٩٩هـ/٩٢١م).

- شرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (توفي سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م).

- شرح لأحمد بن محمد النحاس (توفي سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م).

- شرح أبي سعيد الضير (شرح المعلقات)، لأحمد بن خالد (توفي سنة ٦٨٢هـ/٨٩٥م).

- فتحة المعلقات لأبيات السبع المعلقات، لعبد القادر

تبين هذه النماذج على قلتها أن نمطا عنوانيا جديدا دخل ساحة الفعل الثقافي، وهو ربط الشرح بالشرح وفق بنية نمطية مركبة هي:

**العنوان التحجيسي:** شعر، والمضاف إليه (اسم الشاعر أو الشعراء)، والشرح مضافا إلى اسم الشارح.

يقوم العنوان الفرعي بوظيفة مزدوجة، الأولى تداولية تتمثل في كون المقصود هو الشرح وشارحه، والثانية عملية هي كون العنوان الوجه الظاهر للمصاحب للنص في شكله المادي. وبهذا نكون إزاء بنية نمطية عميقة هي العنوان الأصلي مضافا إلى العنوان الفرعي. وأما دواوين القبائل فكان حظها أفضل من حظ الدواوين المفردة. فقد ذكر ابن النديم في "الفهرست" قدرا مهما منها، وأضاف "فؤاد سزكين" عددا آخر، مرجحا احتمال وجود قسم منها قبل مرحلة الصناعة، ومن عناوين هذا الصنف التي ذكرها ابن النديم: أشعار الأسد (الأزد)، وأشعار أشجع، وأشعار بجيلة، وأشعار بني أسد، وأشعار بن الحارث، وأشعار بني حنيفة، وأشعار بني ذهل، وأشعار بني ربيعة، وأشعار بني شيبان، وأشعار بني مية. لقد صيغت هذه العناوين على نمط واحد ارتكز على مصطلح "الأشعار" مضافا إلى اسم القبيلة وفق البنية الآتية: العنوان التحجيسي في الجمع (الأشعار)، واسم القبيلة.

### العناوين والعصبية القبلية

وتستمد هذه العناوين قوتها من العصبية القبلية التي جرى تأحيجها أيام بني أمية. فكانت القبائل تحتهد في جمع قصائد شعرائها لتتداول بها على القبائل. ولكن من حسنات هذه الظاهرة أنها مكنت من جمع قدر مهم من الشعر ظل متفرقا بين القبائل. وغالبا ما تفرقت هذه العناوين بآخر فرعي يدل على جهد الجمع والتأكد من الصحة، متمثلا في "الصانع" أو "العامل"، فصير بنية العنوان: العنوان الأساسي، والعنوان الفرعي (اسم الصانع) كأن نقول: "أشعار الأزد (عنوان رئيسي)، صنعه ابن السكيت (عنوان فرعي).

ومع ذلك تتساءل عما إذا كانت هذه الصورة التي ذكر ابن النديم، هي النمط الفعلي للعنوان الموجود في مقدمة الكتاب أم هو مجرد صفة نمطية تميز هذه الأشعار؟ وما كنا متسائلين لولا



أحمد الفاكهي (توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

- كتاب إمتاع البصر والقلب والسمع في شرح المعلقات السبع، ألف بين (١٧٤٢م-١٨٧٠م).

- مفتاح المعلقات في شرح المعلقات، لأحمد بن محمد بن عبد الكريم الموسوي المعلم، ألف بعد (١٢٧٦هـ/١٨٦٢م).

- عقود اللآلئ المنسقات في شرح السبع السموط والثلاث المعلقات، أكمله أحمد بن محمد بن إسماعيل المعافي النحوي (توفي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م).

### تطور الوعي بوظيفة العنوان التداولية

تبين هذه العناوين التطور الذي عرفته شروح المعلقات إلى حدود القرن التاسع الهجري. فقد بقي العنوان محافظاً على نمطية بسيطة وغير مركبة تشير إلى طبيعة التأليف (الشرح) ثم إضافة اسم المصنف. لكن هذه البنية ما لبثت أن أصبحت مركبة مع ميل العنوان إلى الطول من جهة، وإلى استغلال بعض المؤثرات كالسجع والطباق، كما في "إمتاع البصر والقلب والسمع في شرح المعلقات السبع، وفي عقود اللآلئ المنسقات في شرح السبع السموط والثلاث المعلقات".

فالتكلف في العناوين واضح، ولكنه تكلف يجلب الأنباه ويحث على التدبر، وهي مكونات تداولية تجلب المتلقي بالنظر إلى ما يجده فيها من عناصر الإغراء. وبذلك يكون العنوان قد دخل مرحلة جديدة يجسدها تطور الوعي بوظيفة العنوان التداولية. إذ لم يعد مجرد لحظة عابرة أو ثانوية، بل صار بؤرة أساسية تستوجب العناية والاهتمام. ومما يسترعي الانتباه على هامش المعلقات هو استمرار فكرة الشرح إلى حدود القرن ما قبل الماضي، مما يدل على أن لكل فترة شرحها الذي ينسجم مع مستوى الذوق السائد رقيًا ونزولاً. فتوالي الأجيال وابتعاد بعضها عن تذوق العربية يرفع من احتمال عدم فهم الأشعار القديمة، وتدبر آيات الذكر الحكيم مما يحتم ظهور الشروح بين الحين والآخر.

وأما كتب المعاني التي يقصد بها "المجموعات من الأبيات المرتبة وفق مفاهيم ومعان وموضوعات محددة، وتعنون بمثل: "كتاب المعاني"، "كتاب معاني الشعر"، "كتاب أبيات المعاني".. فهذا الصنف من المختارات الشعرية يغلب عليه

الطابع الموضوعاتي لتركيزه على إيراد الأشعار التي وردت في معنى من المعاني، ويقوم على بنية حدية واحدة لا تتغير. وأورد "سزكين" مجموعة من هذه الكتب التي حافظت على النمط السالف، باستثناء عنوان واحد مركب هو: "كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه" للمفجع محمد بن أحمد المتوفى سنة (٣٢٧هـ/٩٣٩م).

يذكر "سزكين" في معرض حديثه عن كتب المعاني محتويات بعضها ككتاب ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وهو مقسم تقسيماً غير الذي أورده "سزكين"، إذ قسم إلى كتب هي كما في الجزء الأول منه: "كتاب المبالغة: في المدح والتهاني والافتخار، وهو الباب الأول من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول"، ثم "كتاب المبالغة في أوصاف خصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحزم والعقل، وما يجري من ذلك وهو الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني"، وتصدير عبارة "كتاب المبالغة"، بالبسملة مع دعاء استهلاقي يجعلنا نظن أن:

- الكتاب في الأصل عدة كتب أو رسائل متفرقة تم جمعها في كتاب واحد.

- وأن له عنوانين هما "كتاب المبالغة" و"ديوان المعاني". ومن الراجح أن يكون العنوان الأول من وضع النساخ، لأن صاحب الكتاب يخبر في أكثر من موضع أن الكتاب اسمه "ديوان المعاني". والصيغة الغالبة على هذه العناوين هو إشارتها إلى موضوع الفصل بدقة متناهية، يدرك ذلك بالاطلاع على تقسيم "كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه"، الذي أورده "سزكين" كآلآي: كتاب حد الإعراب، كتاب حد المديح، كتاب حد البخل... إلخ. والكتاب مقسم وفق صورة نمطية واحدة تتشكل من لفظة "كتاب"، التي توازي مصطلح فصل أو باب. وارتبطت موضوعات المصنف بلفظة "حد"، التي تقوم بمهمة تأطير الأنماط المعرفية ووصفها في إطارها الدقيق عن طريق تمييزها عن غيرها، واستقلالها عن الأنماط الأخرى. الأمر الذي يفسر بأنه ابتعاد عن الانطباعية وسيطرة الدوافع العلمية. ■

(٥) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب.

# أسرار هندسيّة في خلية عسل

أ.د. محمد سامي بولات أوز \*

سم<sup>2</sup>)، رأينا أن محيط الدائرة أقصر من محيط المربع. ولكن الحال يختلف في بناء خلية العسل تماماً. إذ من أهم الجوانب التي شددت الاهتمام في عمل النحل هي القدرة على البناء، البناء الذي قامت كل نحلة بوضع جزء من أجزائه، وذلك في انسجام كامل مع المعايير الهندسية المتسلسلة. ومما يجدر ذكره هنا أن الشكل السداسي هو الشكل الذي يشغل مساحة أقل عن الأشكال الهندسية الأخرى، لأن الخلية السداسية الشكل هي التي تتطلب أقل كمية من شمع العسل، في حين تُخزّن بداخلها أكبر قدر ممكن من العسل. وعلى هذا النحو تكون النحل قد اكتشفت كيفية إنشاء بناء بالحجم اللازم وبطريقة اقتصادية أكثر، كما تكون قد استخدمت المواد بقدر معين دون إسراف.

ولقد أثبتت الدراسات أن الشكل السداسي هو الأنسب لاستخدام مساحة الوحدة بالكامل مع استخدام أقل قدر ممكن من المواد اللازمة لإنشاء أقراص العسل. ولو كانت هذه الأقراص ثلاثية أو رباعية الشكل لتّم استخدامها دون ترك فراغات، ولكن المواد المستخدمة من أجل الخلايا السداسية أقل بكثير من المستخدمة من أجل الخلايا الثلاثية أو الرباعية. أما في الأشكال الهندسية الأخرى فلا بد من بقاء مساحات شاغرة.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ها هنا هو: أي مصلح متساو يمكن أن نستخدمه عند تقسيمنا منطقة معينة؟ فمن المعروف أن مجموع قياسات الزوايا الداخلية للمضلع هو  $(n-2) \times 180$

من علم النحل كيفية تقسيم الوحدة الكبيرة إلى عيون صغيرة بالحجم اللازم وبطريقة هندسية محكمة؟ من علمها استخدام المواد المتوفرة بقدر معين؟ ما هي ميزة الشكل السداسي عن الشكل الثلاثي والرباعي المتساوي الأضلاع؟ كيف استطاعت النحل حساب كمية العسل في كل خلية، وكيف علمت أن بنية سطح الخلية السداسية هي الأمثل؟ وكيف عرفت أن الشكل السداسي هو الأنسب والأوفر من بين الأشكال الأخرى؟ كيف تمكنت النحل التي تعيش ستة أسابيع فقط، تنفيذ الحسابات الدقيقة والتطبيقات العملية؟ وكيف استطاعت ضبط المقاييس الحساسة التي يستحيل للإنسان أن يعيها بسهولة؟ وهل يمكن أن نصف أعمال النحل هذه بأنها "غريزة"، أم أنها توجيه إلهي؟

أثارت خلية العسل وهندستها المعمارية المذهلة اهتمام البشرية جمعاء. وقد بلغ سماكة جدران هذه الهندسة الدقيقة للغاية والتي تكونت من أقراص سداسية بجوار بعضها البعض، حوالي (1,0 مم)، أما الانحراف عن هذا القدر الوسطي لا يتعدى عن (0,002 مم). ومن أجل استيعاب مدى دقة هذه القاعدات الهندسية في بناء الخلية، يجب أن نملك نظرة حسابية ورياضية عميقة جداً.

الدائرة هي شكل هندسي مستو محدود، ونقاطه متساوية الأبعاد من نقطة داخلية تسمى مركز الدائرة. فإذا قابلنا -على سبيل المثال- طول محيط الدائرة ومحيط المربع الذي يبلغ (10

أوفر وأقوى وأفضل حل لتخزين العسل. وقد تبين أن الطريقة التي ابتكرها النحل في تصميم الخلايا على أشكال سداسية، تتمتع بفوائد هامة في تقليل الطاقة اللازمة في العمل وكمية الشمع اللازمة للتغليف؛ حتى إن "داروين" نفسه وصف هذا البناء بأنه ابتكار هندسي مذهل. فكيف استطاعت النحل حساب كمية العسل في كل خلية؟ وكيف علمت بأن بنية سطح الخلية السداسية هي الأقوى؟ وكيف عرفت أن الشكل السداسي هو الأنسب والأوفر من بين الأشكال الهندسية الأخرى؟! لا بد هنا أن نلفت الانتباه إلى أن النحلة لم تتعلم كل ذلك من تلقاء نفسها أو بالصدفة، بل خالقها هو الذي أعطاه كل هذه المزايا، وقابلية حل جميع المشاكل الرياضية هذه، وأمر النحلة بإبجازها على أكمل وجه. وقد قام الباحثون بالفحص عن تجربة النموذج الرياضي لـ "توماس"، حيث استخدموا من أجل ذلك الهواء السائل الرغوي. فقاموا بضخ فقاعات رغوة المسحوق التي يبلغ قطرها (2 مم)، على شكل طبقتين بين زجاجتين. فتحوّلت الفقاعات التي لامست الزجاج إلى أشكال سداسية. وظهر في الطبقتين الوسطيتين شكل المربعين والمسدسين اللذين حللتهما "توماس". وعندما زيد من سماكة جدران الفقاعات قليلاً، ظهرت حالة مثيرة للاهتمام، إذ تحوّل الشكل فجأة إلى ثلاثة مربعات متساوية الأضلاع، كما يحدث عند النحل تماماً. وقد أكدت هذه التجربة أن النحل تُعَيِّر من شكل خلية العسل عند أي تغيرات ومستجدات تحدث، وليس لدى النحل عقدة في الاحتفاظ بشكل دون الآخر. هذا وقد بيّن الخالق ﷻ نعمته على البشر حيث كلف النحل بصنع العسل أكثر من حاجتها، كما أن كل هذه الأمور التي تنجزها النحل تحدث نتيجة تنظيم رباني وتدبير إلهي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٩٦﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ فَاَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ (النحل: ١٩٦-١٩٧).

درجة. وعندما نرغب في تقسيم منطقة كبيرة إلى مساحات صغيرة، ينبغي على المضلّعات المجاورة أن تلتحم جيداً ببعضها البعض دون أن تترك بينها مساحات فارغة، وكذلك ينبغي أن يكون مجموع الزوايا الداخلية للمضلّعات المجاورة الملتحمة، (360) درجة، أي بعبارة أخرى ينبغي أن يكون ضعف العدد الصحيح للزاوية الداخلية هو (360) درجة. وعلى هذا النحو فيمكن أن نكتب المعادلة التالية لتوضيح عدد الزوايا الداخلية المجاورة للعدد الصحيح "N".

$$N(180 - 360 / n) = 360$$

ومن ثم يكون العدد الصحيح "N"

$$N = 2n / (n-2) = 2+4 / (n-2)$$

وما نحاول الوصول إليه هنا هو الحصول على العدد الصحيح "N" من بين عدد الأضلاع "n". ويمكن أن نحصل على قيمة الأعداد الصحيحة في (n=3, 4, 6)، فقط، في حين لا يمكن الحصول على أي عدد صحيح في أرقام ما فوق (6). أي إذا أردنا تقسيم منطقة دون ترك أي فراغ، فيجب علينا أن نستخدم الشكل الثلاثي أو الرباعي أو السداسي، لا الشكل الخماسي المنتظم، لأن الأشكال الخماسية عند تكرارها تترك فراغات وبزاوية (360) درجة. وبناء على ذلك فإننا إذا قارنا الشكل الثلاثي والرباعي بالشكل السداسي، رأينا أن الثلاثي والرباعي يملكان نفس العمق ويخزنان نفس الكمية من العسل، إلا أن المساحة التي يشغلها تكون أكبر من المساحة التي يشغلها الشكل السداسي.

كان الاعتقاد السائد لا سيما عند علماء الأحياء، أن الغاية الرئيسية من بناء الخلايا بالأشكال السداسية هي تقليل حجم العمل وكمية الشمع فقط. ولكن خلال القرن الماضي اتضح السر في اختيار النحل هذه الأشكال، وهو أن استخدام الأشكال السداسية تجعل بنية السطح أقوى، ومن ثم تؤمن استهلاك أقل قدر ممكن من المواد. وقد تم فيما بعد دراسة الطريقة المثلى لتقسيم السطح إلى أقسام متساوية ومتماثلة في الشكل بحيث لا تترك أي فراغ بينها. وقد أثبتت هذه الدراسة أن أنسب الأشكال التي ينبغي استخدامها هنا هي الثلاثية والرباعية والسداسية، وأن الأشكال الأخرى ستؤدي إلى ظهور فراغات حتماً.

لم يستطع أحد من العلماء تقديم الشرح الكافي في اختيار النحل للأشكال السداسية رياضياً حتى حلول عام ١٩٩٩، وذلك عن طريق "توماس هاليس". إذ استطاع "توماس" وضع البرهان النهائي في أن اختيار النحل للأشكال السداسية هي لكونها

(١٩) أستاذ في جامعة جلال بيار / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

## المسلم والخيال العلمي

د. خالد عمارة \*

من الملاحظ في السنوات الأخيرة وما يدعو للقلق، ازدياد ظاهرة تسرب أفكار هدامة وغريبة إلى شباب المجتمعات الإسلامية من خلال ما يوصف بروايات أو أفلام الخيال العلمي؛ مثل قصص حرب النجوم، ويوم الاستقلال والكثير غيرها. ونجد هذه الأفكار تؤثر في تشكيل وعي شبابنا ونظرهم إلى المستقبل.

ويستعمل الكثيرون مصطلح "الخيال العلمي" لوصف قصص أو توقعات لأحداث تقع في الحاضر أو المستقبل. وهذا يكون مبنياً على معلومات من الماضي والحاضر. ووفقاً لرأي مؤلف قصص الخيال العلمي "روبرت هينلين" فإن التعريف المختصر للخيال العلمي هو تصور واقعي لأحداث مستقبلية محتملة الحدوث، على نحو يركز بقوة على المعرفة الكافية بالواقع الحالي والماضي والحاضر، والإلمام التام بالطبيعة مع أهمية الأسلوب العلمي. ويعتمد هذا اللون من الأدب على ما يتوفر لدى الإنسان من معارف علمية، ويضيف إليها ما توفر من دروس تاريخية وخربرات فلسفية ليصوغ هذا كله في صورة قصة خيالية يرى فيها أحداثاً مستقبلية.

إن القرآن هو كتاب للهداية وتهذيب النفس البشرية. ولا يجب أن يكون هناك تعارض بين الرسالة التي يحملها القرآن للبشرية وبين ألوان الإبداع التي يمكننا أخذها وتنميتها من هدي القرآن ونوره.



وفي الوقت الذي يقدم فيه أدب الخيال العلمي نقداً للتقنيات المتطورة والمستقبلية، فإنه يقدم أيضاً ابتكارات وتقنيات جديدة. وقد تمت مناقشة هذا الموضوع في المحافل الأدبية والاجتماعية بصورة تفوق مناقشته في المحافل العلمية.

وهناك الكثير من الفروع المشتقة من هذا الأدب منها: السفر عبر الزمن، والتاريخ البديل، والخيال العلمي العسكري، وأصحاب القدرات الخارقة، والقصص التي تعبر عن نهاية العالم، وأوبرا الفضاء (قصص رومانسية في الفضاء)، وقصص غزو الغرب للفضاء، وقصص الرعب أو الغموض.. إلى آخره من الأنواع التي تمزج بعض الواقع ببعض الخيال.

ومن الملاحظ في هذا النوع من الأدب أن تسميته بـ"الخيال العلمي" هو أحد نتائج الخلط الذي حدث مع بداية القرن التاسع عشر، باعتبار أن المستقبل للعلم وأن الماضي كان للروح، وبالتالي فالأدب المعني بتخيل المستقبل هو أدب أو خيال علمي. وهذا مما لا تتفق معه في الفكر الإسلامي، حيث أن الماضي والحاضر والمستقبل يجب أن يكون منبياً على توازن بين العقل والروح والجسد، فلا يطغى أحدهم على الآخر.

### النظرة إلى التاريخ

ونجد أغلب هذا الأدب النابع من الغرب أو المقلد له في باقي أنحاء العالم، ينظر إلى تطور التاريخ على افتراض أنه في اتجاه واحد بدأ مع بداية الخليقة و ينتهي بفنائها. وهذه النظرة الغربية في التاريخ تعود إلى العصور الوسطى الأوروبية، في حين أن النظرة الإسلامية للتاريخ -وتتفق معها بعض الفلاسفة اليونانية والشرقية- تنظر إلى التاريخ على أنه عملية تبادل مركز الصدارة بين حضارات وشعوب ودول مختلفة، من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). ونتيجة لهذا، نجد في الكثير من قصص "الخيال العلمي" أن المستقبل لا يزال في الغرب، ولا يفترض أن مركز الحضارة يمكنه أن يعود إلى الشرق مرة أخرى. وحتى في قصص نهاية العالم التي يملؤها التشاؤم، نجد أن العالم كله ينتهي والحضارة تنهار بالهيار الحضارة الغربية. ولا نجد افتراضاً أنه من الممكن في المستقبل أن يتراجع الغرب ويصبح متأخراً، بينما يتقدم عليه في الحضارة والعلوم الروحية والعقلية مكان آخر أو شعب آخر من شعوب الإنسانية وأحناسها.

وبما أننا تطرقنا إلى القصص التي تعبر عن نهاية العالم، فنجد

أغلب قصص الخيال العلمي تتحدث بصورة يملؤها التشاؤم. وقد يكون مصدر هذا، ما هو موجود في أدب العصور الوسطى الأوروبي من حديث عن معركة "هرمجدون"، ومعارك نهاية العالم التي يموت فيها سكان الأرض قبل عودة السيد المسيح، في حين أن ما يتوفر لنا من معلومات من القرآن عن النهاية، أما تكون لصالح المؤمنين، ودون أن يكون هناك تلك الاستفاضة في الحديث عن مجور للدماء أو القتل تسبق هذا، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، بل إننا نجد القرآن يقدم هذه الآية كقاعدة وسنة من سنن الله في الأرض تكررت وستكرر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

### القرآن وأدب استقراء المستقبل

وبما أننا كمسلمين نؤمن بأن كل ما نزل به القرآن هو حق وصدق حتى وإن لم تتسع مداركنا ولم يحط علمنا الحالي لفهمه وإدراك كامل معانيه، إذن فإن أدب استقراء المستقبل لدينا يمكن أن يعتمد ليس فقط على العلوم المادية المتوفرة لدينا، بل أيضاً على الهدى القرآني، ولنستعمل كليهما لتنمية طاقات الإبداع لدى روائيين وسينمائيين. ويكون الهدف هو نشر الفضيلة والحث على العمل الصالح وتبليغ دعوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ليس فقط إلى مجتمعاتنا، بل وإلى مجتمعات وأناس لم يعرفوا بعد حقيقة ديننا الحنيف.

إذن فماذا لو نظر أحدنا بخياله عبر المستقبل مستعيناً بما توفر لنا من هدى القرآن، وما وصلنا من معلومات ودروس من التاريخ، وما وصل إليه العقل البشري من علم؟ لا بد وأنا سنرى وتخيّل المستقبل بنظرة مختلفة لم تتوفر لسابقينا ممن كان لديهم نصوص القرآن، ولكن لم يتوفر لهم العلم الكافي لفهم هذه النصوص، وأيضاً ستكون نظرة مختلفة عمن توفر لهم العلم ولم يتوفر لهم الهدى القرآني. فهناك الكثير من آيات القرآن لم يسهل علينا فهمها إلا بعد أن فسرها العلم الحديث لنا مثل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿۱﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠)، ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٧)، والكثير من الأمثلة على معجزات علمية حدثنا عنها القرآن منذ (١٤٠٠) سنة وكل يوم نفهم المزيد منها، فكلمنا زاد علمنا الدنيوي كلما زاد فهمنا لقرآنا.

### القرآن حافر للخيال والإبداع

كما نجد القرآن يحوي الكثير من الصور من الماضي والمستقبل،



والتي تكفي كل صوره منها لإثارة الخيال وبناء صور وقصص على مستوى عالٍ من الرقي. فمثلاً إذا تأمل الإنسان في بعض علامات الساعة المذكورة في القرآن، نجد ما يحفز خيال المبدع بصور مركبة. فننظر مثلاً إلى بعض الآيات: البحار فجرت، القبور بعثرت، الجبال سيرت، وانشق القمر.. والكثير من الصور الملحمية والتتابع والترابط فيما بينها، يكفي كقاعدة بيانات لكثير من قصص تصور المستقبل البعيد. وهناك ما يصف بعضاً من أوصاف الجنة أو الجحيم، رغم أن بها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولكن الأوصاف التي نجدها في القرآن، بما من الحفز للخيال ما يكفي للكثير من الإبداع.

وفيما يتعلق بصور الماضي وعظاته فهي أيضاً مليئة بما يلهب خيال القاصين والرسامين والمبدعين.. فنجد في القصص القرآني من قصص السابقين؛ كقوم عاد وثمود ولسوط ومدين.. الكثير من المعجزات والمشاعر الإنسانية الجميلة والمعبرة، كما نجد في قصص بني إسرائيل وقصص الرسل عليهم السلام الكثير من الملاحم الإنسانية والمعجزات. هذا فضلاً عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

كما نجد في هذا القصص القرآني الكثير من التشابه مع وقائع حدثت وتحدث وستحدث في حياة كل منا. من هذه الأمثلة الآيات (٢٦) إلى (٣٣) من سورة غافر، حيث نجد مناظرة بين مرشحين في حملة انتخابية، يحاول كل منهما إقناع المأ والعامه بوجهة نظره، وللأسف ينجح من يناصر الرأي الظالم (فرعون) في أن يستخف عقول قومه فيطيعوه ويتبعوه إلى التهلكة.

### صور المستقبل والخيال الإنساني

وهناك من الصور القرآنية نوع آخر يتحدث عن المستقبل، ولكن لا نعرف بعد هل بقي الكثير أم القليل على قدوم هذا المستقبل، من أمثله هذا: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمُرُنَّهُمْ وَلَأُمُرُنَّهُمْ فَالْيَتَكُنَّ آذَانَ الْاُنْعَامِ وَلَا مُرُنَّهُمْ فَالْيُعَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١١٩). فهل هذا له علاقة بالهندسة الوراثية أم يجمع الإنسان الآلة أم هناك ما هو أكبر وأعقد؟! لا أعتقد أننا قد فهمنا هذه النبوءة جيداً بعد. وهناك أيضاً بداية سورة الإسراء ونبوءة المواجهة بين بني إسرائيل وبين عباد الله المؤمنين. والكثير من النبوءات التي لم نفهمها جيداً بعد، وبالتالي فهي مفتوحة لما يتوفر في الواقع من معطيات وأدلة وما يكمله من الخيال الإنساني.

وهناك النوع الآخر من القصص أو النبوءات وهو القصص الذي لا نعلم وقته وزمنه، وهل هو حدث فعلاً في الماضي أم أنه سيحدث في المستقبل أم أنه سيتكرر حدوثه.. ومن أمثلة هذا، قصة ذي القرنين وبأحوج ومأحوج، وسبب هذا أن القصص القرآني واضح فيه وفي حدوثه، ولكن لم يطلعنا بالتحديد على زمانه أو مكانه. وبالتالي فقد ترك لنا أن نتخيل ما نشاء بشرط أن نتخذ العظة والعبرة المطلوبة لصالح ديانا وآخرتنا.

إن القرآن هو كتاب للهداية وتهديب النفس البشرية، ولذلك فكل ما نتعلمه منه يجب أن يصب في نفس الاتجاه، ولا يجب أن يكون هناك تعارض بين الرسالة التي يحملها القرآن للبشرية وبين ألوان الإبداع التي يمكننا أخذها وتنميتها من هدى القرآن ونوره.

إذن فما يسمى بـ "الخيال العلمي" إذا كتبه أديب مسلم أو سينمائي مسلم مطلع على دينه وقرآنه فسيعطينا شكلاً مختلفاً تمام الاختلاف، كما سيكون المضمون والمحتوى أقرب لما نؤمن به وأكثر قدرة على نشر الدعوة الإسلامية والفضيلة، ليس فقط في مجتمعاتنا، بل في البشرية جمعاء. ■

إن أدب استقراء المستقبل يمكن أن يعتمد ليس فقط على العلوم المادية المتوفرة، بل وعلى الهدى القرآني، ولنستعمل كليهما لتنمية طاقات الإبداع لدى روائينا وسينمائينا. ويكون الهدف هو نشر الفضيلة والحث على العمل الصالح وتبليغ دعوة نبينا محمد ﷺ إلى العالم كافة.

(٢) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.





# الزمن الروحي في فكر النورسي

أديب إبراهيم الدباغ \*

فكتابات "النورسي" إنما هي هذا المزيج الزمني، يتدفق من قلمه على صفحات "رسائل النور". فأنت تقرأ فيها روح الزمان متلاحماً مع روحه وممتداً فيه، ومتغلغلاً في سويدائه، فإذا تكلم لا تدري أيّ روح هو الذي يتكلم، أهو روح الزمان أم هو روح نفسه؟! فكتاباته ماضوية حضورية، وحضورية ماضوية، والآتي الذي سيكون هو شقيق الزمن الذي كان، وقد تنداعى الأزمان كلها لرفد زمن واحد، والزمن الواحد قد يتسلل إلى كل الأزمان ليزيدها حضوراً وحياءً وخصباً. ولقد تعلم "النورسي" من القرآن الكريم أستاذه الأول والدائم، هذا الأسلوب المزجي بين الأحقاب، وتشرّب ذهنه ووجدانه زمان القرآن الروحي واستوحاه في أعماله الفكرية كلها.

فالزمن القرآني هو زمن وحدوي كلي الأبعاد، لا يُجزأ ولا يُقسّم. فالآية القرآنية وأينما كان موقعها من السورة تحتوي

بممكنكم أن تقولوا - وأنتم مصييون - إن "النورسي" هو رجل الغد الآتي، وفي الوقت نفسه رجل الأمس الذاهب.

فالزمن في فكره روحي خالص، يجياه بأبعاده كلها، ووجود حي لا يموت ولا يفنى. وكلُّ كُليٍّ من أيّ حُقبَةٍ من حُقبَةِ آتِيَتِهِ فقد آتيتَ الزمنَ كله، وبأيّ مِفْصَلٍ من مفاصله أمسكتَ فقد أمسكتَ بكلِّ مفاصله.

ولهذا الزمن الروحي خاصية متفردة بين الأزمان، وهي خاصية الإحياء الذي يناهض ضروب الموت، فيحفظ الأحداث والوقائع حيةً تنبض بالحياة وتنعم بالخلود. فإذا ما أوغل "النورسي" في ماضي هذا الزمان فإنما يوغل في الزمان كله، ماضيه وحاضره ومستقبله، لأنه وحدة واحدة لا فواصل بينها ولا حدود، ومتداخلة الأبعاد، إذا أمسك ببعده واحد منها فقد أمسك بالأبعاد كلها.

ي



على الأبعاد الزمانية جميعاً، وهي مرآة تعكس سرمدية القرآن، وتعكس أزلية منزل القرآن وأبديته، فكل زمان غيرها يبدو بجانبها وكأنه برهات طافية في فراغ زمني سحيق.

إنَّ حِسَّ "النورسي" الزماني التوحدي غداً مع الأيام طابع أعماله الفكرية، مما أضفى عليها صفاءً زمنيًا تتجلّى به آفاقها الأبدية، حتى لو كانت معالجات زمانية ومكانية محدّدة ومعينة. ولكون القرآن الكريم وضع في يده زمام الزمان كله، لذلك فقد انصرفت عنايته إلى المسائل الأبدية التي تُحسب أعمار الأكوان إلى جانب عمرها وكأما أعمار آحاد لا تكاد تُحسب.

إن فكرة "الزمان الروحي" التي عالج "النورسي" على ضوئها أكبر الحقائق وأصغرها يمكن أن تقلب العالم رأساً على عقب، إذا هي اعتُمدت من قبل المفكرين والمؤرخين وأصحاب الرأي وتدارسوها بمزيد من التواضع والاهتمام. فمشكلات العالم ناجمة من عجزه عن استيعاب هذه الفكرة التي تستوعب الأكوان ولا تستوعبها الأكوان. فالحياة الإنسانية تظل لغزاً غامضاً ما لم ننزلها منزلتها من حياة الأبد.

فكلما ازدنا دراسة للإنسان، وفحصاً لمكونات حياته الجوانية من فكر وحس وخيال ومشاعر وأحاسيس وذاكرة، وجدنا مزيداً من الأدلة على أن الإنسان يشعر بطريقة ما أنه صُنِعَ للأبد، وخلق للخلود، وأن مكانه في الأبدية في خاتمة جميع أزمنته، وحتى وهو بين لُجْب الحضارة والصناعة يرتدي فوق إهابه -أراد أم لم يرد- حُلّة من القداسة تظل محفوظة من أذخنة المصانع وسحب الأجواء الملوثة بالغبار والتراب والسخام، إلى حين العودة إلى نفسه والرجوع إلى ذاته، الحافلة بتاريخ الروح والمفعمة بالفهم والأدراك... فأبى زمان نسبي لا يتلاشى أمام هذا الزمان الروحي المطلق الأبعاد والذي يمجج بكبرى وقائع الروح الإنساني وعظائم أحداثه وصراعاته وكفاحاته من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده.

فالنورسي يرى في تنزلات الكتب الإلهية ولاسيما القرآن إسهاماً إلهياً مع الإنسان في كفاحه الدائم من أجل إحراز الانتصار على نسيب العالم وفنائياته، وتأهيل الروح لتجد مكانها من الأبدية التي تتوق إليها. فكلما ارتفع الروح زاد نتاجه وعظمت أجماده وعمّ نفعه، واجترح من المعجزات والابتكارات والإبداعات ما يُضاف إلى إرث الإنسانية، ويزيد في تاجها دُرّةً جديدة من درر الروح الإنساني العظيم.

فالتعريف المبتكر الذي يقدمه "النورسي" للقرآن الكريم يكشف لنا عن عمق "الزمان الروحي" في نفسه، وانعكاسات ذلك في أفكاره وكتابات، فيقول: "القرآن الحكيم الذي يعرف لنا ربنا:

- هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات،
- والترجمان الأبدية لألسنتها التاليات للآيات التكوينية،
- ومفسّر كتاب العالم،
- وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض،
- وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المُضمرة في سطور الحادثات،
- وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة،
- وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية،
- وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي،

• وكذا هو خريطة للعالم الأخرى. (الكلمات، الرشفة الرابعة عشرة) وأود أن أنبه إلى أن هذه النقاط التسع ليست هي كل تعريفاته للقرآن. فقد اكتفيت بها لأنها تفي بالغرض الذي أتوخاه في هذا المقام. فهو في هذه التعريفات يعطي للكائنات بُعداً أزلياً وبعداً أبدياً، ويشعرنا بأن هذين البعدين يمسكان بالخليقة ويصنّان فيها زماناً إلهياً وحدوي الأبعاد لترى نفسها على حقيقتها من خلالهما، ولتختار مكانها منها على علم ودراية، ولتقوم بعد ذلك بتفسير العالم والزمن والتاريخ على ضوء هذه الاختيارات.

فالتاريخ البشري هو خيال الزمن الروحي، وظلٌّ من ظلاله، وطيف شاحب من أطيافه، ويستمد من روح الزمان ووحدته الوجودية عناصر صيرورته وامتداداته، غير أن الإنسان يأبى إلا أن يجد من نفسه، ويصاغِر من وجوده، فيضغط التاريخ، ويقارب بين مطلق أزمانه، ثم يجزئه ويقسمه إلى حقب وأزمان، على الرغم من أن الإنسان الذي هو مادة التاريخ الأولى مرتبط بحقيقة كُلاً الوجود متفاعل ومتناغم معه، فما لم يُفهم الكل لا يُفهم الجزء. فالتاريخ إنما هو انفعال زمني حافز لتحريك قوى التحدي لدى الإنسان عندما تدهمه نذر الفناء والزوال، حرصاً منه على الامتداد الخالد في الروح الزماني الحفيظ على نضالات الروح وعلى ارتقاءهما في سلم الانعتاق الأبدية من آسار الزمان والمكان. وأعود فأقول إنَّ الزمان الروحي عند "النورسي" ليس هو



## جسر العبور

جسر عبورك مهدوم،  
ومحلوك الليل من حولك مبروم...  
إذن:

احفر في الزمن نفقاً،  
وأقم جسراً،  
وعن السير لا تتوقف...  
فبصيص النور من بعيد يناديك،  
وإليه يدعوك،

وعن قريب سينفجر النور  
وتعمُّ البهجة والسرور...  
\* \* \*



بأسلوب كتابة وتفكير فحسب، بل هو أسلوب حياة، وطريقة عيش وسلوك، لأنه يسرى في عروقه وأعصابه ويخالط دمه، فصاحب هذا الزمان لا يمكن أن يضلّ العقول، أو يستهين بالأفهام، كما قال مخاطباً تلامذته: "اعلموا أنني لا أخدعكم، ولا أقول لكم إلا ما لامسته وأبصرته عن تجربة ودراية". "أقول تحدثاً بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين". "فما كتبتُ إلا ما شاهدتُ.. بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي". "إذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب".

فهو يريد أن يحفز تلامذته إلى أعظم أعمالهم وأخلدها على الزمان، ويجعلهم يتلمحون الحقيقة المجردة التي تضل عنها حواس الأزمنة القصيمة وعقل الزمن ذي الوحدات المجزأة والمقسمة. فالتقاؤنا بالروح الإلهي عبر هذا الزمان لا يفوق طاقة الإنسان وقدراته الروحية، إذا هو أرهف حسه الزماني، وشحذ بصيرته الإدراكية، وتجاوز مسائل الساعات العابرات، وكثف جهده من أجل الكشف والرؤية.

ولا يمكن إدراك هذه الرؤية إلا من خلال جرأة روحية تواجه الامتداد الزماني بوعي امتدادي مثله، وبهذه الرؤية يمكننا الحكم على أحداث التاريخ ليس من خلال سياقاتها الزمانية فحسب، بل ومن خلال وشائجها الكونية والقدرية كذلك، فلا نخطيء الحكم ولا نشتط فيه، وسنرى إذا ما أرهفنا بصيرتنا الروحية أن ما من حدث إلا ويكمن فيه الماضي كما يكمن فيه المستقبل، وما من حدث إلا وهو تركيبة عجيبية تختلط فيه جميع الأزمنة؛ حاضرها وماضيها وآتيها، فكما تعني جميع ألوان الطيف في البياض الذي هو ملتقى الألوان هكذا تعني الأزمنة كلها في الحدث التاريخي المرصود مترجماً عن زمانية واحدة هي زمانية "الأبد الموعود".

فالتاريخ البشري لا يمكن أن يكون مصدراً من مصادر التنوير الفكري والمعرفي كما يريد القرآن، ما لم يواكب حسنا التاريخي امتدادات الزمان في كل أبعاده وحتى نهائياته الكونية، وهذا هو الحس الجامع الذي اعتمده "النورسي" في رؤاه للزمن وللتاريخ. ■

لا نُكبر من الأمر إلا التي تستظل بظلال الوحدة والألصّة من خلال وحدة المعرفة في الدين واللغة والتاريخ..

\*\*\*

## الثقوب السوداء العملاقة

محمد هاشم البشير \*

النجم، حيث ينتج الثقب الأسود من انهيار نجم هائل على نفسه فتتكسد مادة النجم في حجم صغير جدا، وبالتالي فكثافة الثقب الأسود تكون هائلة وجاذبيته مهولة، بحيث إنها لا تسمح لأي شيء يقترب منها أن ينفلت حتى الضوء، ويزداد تركيز الكتلة، أي كثافة الجسم (نتيجة تداخل جسيمات ذراته وانعدام الفراغ البيني بين الجزيئات) وتصبح قوة جاذبيته قوية، بل وإلى أبعد من ذلك. فحسب النظرية النسبية العامة لـ "أينشتاين" فإن الجاذبية تقوّس الفضاء الذي يسير الضوء فيه بشكل مستقيم بالنسبة للفراغ يمتص الضوء المار بجانبه بفعل الجاذبية، وهو يبدو لمن يراقبه من الخارج كأنه منطقة من العدم، إذ لا يمكن لأي إشارة أو معلومة أو موجة أو جسيم الإفلات من منطقة تأثيره، فيبدو بذلك أسود.

### الأرض كثقب أسود

إن تحول الكرة الأرضية إلى ثقب أسود يستدعي تحولها إلى كرة نصف قطرها (٩,٠ سم)، وكتلتها نفس كتلة الأرض الحالي، أي بمعنى انضغاط مادتها لجعلها من غير فراغات بينية في ذراتها وبين جسيمات نوى ذراتها، مما يجعلها صغيرة ككرة المنضدة في الحجم، ووزنها الهائل يبقى على ما هو عليه؛ حيث إن الفراغات الهائلة بين الجسيمات الذرية -نسبة لحجمها الصغير- يحكمها قوانين فيزيائية لا يمكن تجاوزها أو تحطيمها في الظروف العادية.

إذا قمت برمي صخرة إلى الأعلى فيلاحظ أنها ستفقد سرعتها تدريجيا حتى تصل إلى الصفر. وعندما يجزها التراجع فتعود مرة أخرى إلى الأرض، وبالتالي تبدأ باستعادة سرعتها حتى تصل إلى الأرض بنفس السرعة التي صعدت بها.. إنها الجاذبية الأرضية وقد فرضت سلطتها الكونية على هذه الصخرة، مع العلم أن تسارع الجاذبية الأرضية يبلغ ٩,٨ م/ث<sup>٢</sup> في معظم بقاع الأرض. فمن أجل أن تهرب الصخرة من مجال الجاذبية الأرضية، لا بد أن تمتلك وسائل بسرعة تبلغ (١١ كم) في الثانية، وتسمى هذه السرعة بـ "سرعة الإفلات". إن الشمس أكثر خطورة من الأرض لأن سرعة الإفلات من سطحها تبلغ (٦٠٠ كلم) في الساعة، كما أن هذه السرعة أسرع بثلاثة آلاف مرة من طائرة نفاثة. وكلما انضغطت كتلة المادة في حيز ضئيل حتى وصل حجمها إلى ما يسمى "الحجم الحرج"، سيقل احتمال الهروب من هذا الجسم كلما زادت الكتلة وقل الحجم. وبالتالي إن أكبر السرعات لا يمكن أن تصبح سرعة إفلات من هذا الجسم إلى أن تصل من الخطورة، حتى الضوء لا يمكن أن يفلت منه بالرغم من أن سرعة الضوء هي أعلى سرعة اكتشفها العلم حتى اليوم، فأى شيء يمر بهذا الجسم سيحاصره الجسم إلى الأبد.

تعتبر الثقوب السوداء، الظاهرة الأعنف والأكثر غموضا في هذا الجانب. فالثقب الأسود يمثل المرحلة الأخيرة من حياة

مراقبة بعض الإشعاعات، كالأشعة السينية التي تنطلق من المواد حين تتحطم جزئياتها نتيجة اقترانها من مجال جاذبية الثقب الأسود وسقوطها في هاويته. وحديثاً تمكن تلسكوب هابل من اكتشاف ثقوب سوداء، وقال العلماء إن الثقوب السوداء توجد في أغلب قلوب المجرات الهائلة وتمتص المواد من قلب المجرة بقوة جذب جبارة، إلا أن فريقاً من علماء الفلك الأوروبيين أعلنوا في دورية نيتشر العلمية أن ثقبا أسود يبعد مسافة ٥ مليارات سنة ضوئية لا يتوفر له دليل على أنه يستقر في مجرة. والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في عام. ورغم أن أينشتاين يقول "إن محاولة البحث عن ثقب أسود يشبه تقريباً البحث عن قطة سوداء في قبو فحم"، يقول العلماء إنه يوجد ثقب أسود في قلب مجرتنا درب التبانة، وكتلته تساوي كتلة الشمس ٤ ملايين مرة -ولكن لا تقلق- فهو يبعد ٣٠ ألف سنة ضوئية، وهو بعيد بالنسبة إلينا أن نقع فيه.

### الثقوب السوداء هل هي سوداء فعلاً؟

أطلق هذا السؤال العالم البريطاني ستيفن هوكينج. والحقيقة أن الثقب الأسود في حد ذاته قد يكون غير مرئي، بل وإن الثقوب السوداء ليست سوداء بهذا المعنى. فيمكن الحصول فيها على مواد بدرجة حرارة عالية كافية للتوهج بل يكون مضيئاً لدرجة يمكنها أن تضيء مليارات السنين الضوئية. وعند ولادة الثقب الأسود تنتج ومضة من الإشعاع المشرقة التي تظهر على نطاق واضح من الكون.. وأحسب أن هذه التسمية جاءت لأنه يتلعب بجاذبيته الجبارة الضوء المرئي. وكثير من الثقوب السوداء تختبئ وراء التعتيم والغبار الكوني مما يصعب مراقبتها. فأقرب ثقب أسود هو على بعد ١٦٠٠ سنة ضوئية، وهو بعيد كل البعد أن يؤثر علينا. وعادة يخلف الثقب الأسود أشعة سينية تظل عالقة في الكون لعقود من الزمن تمكننا من مراقبة الثقوب السوداء والتنبؤ بوجودها.

وأخيراً ورغم تطور العلم الهائل لم يستطع الإنسان احتواء هذه الظاهرة بشيء من اليقين مع العلم أن النظرية النسبية أوجدتها رياضياً وما زال العلماء يجهدون عنها الكثير، وما زالت تحتاج إلى مزيد من الدراسة، ورغم ذلك فهي الظاهرة الأعنف في السماء. ■

(٤) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

ويجد الثقب الأسود سطح يعرف باسم "أفق الحدث". وهنا يجب توضيح نقطة هامة جدا تسبب الخلط عند الكثيرين، وهي أنه يجب التفرقة بين الحجم الذي تتكدس فيه المادة وبين أفق الحدث للثقب الأسود والذي عنده لا يمكن لشيء أن يفلت من الثقب الأسود. فمثلا لو تحولت الشمس إلى ثقب أسود فإن قطره عند أفق الحدث سيصل فقط إلى (٣ كلم) بينما ستتكدس كتلة الشمس كلها في نقطة في مركز الثقب الأسود، وبقية الحجم إلى أفق الحدث سيكون عبارة عن فراغ، حيث تسقط كل المادة التي تعبر أفق الحدث في مركز الثقب. ولذلك فإن النظرية النسبية العامة تعرف الثقب الأسود بأنه منطقة من الفضاء الفارغ الذي يحتوي في مركزه على نقطة التفرد، وعند حافته يوجد أفق الحدث.

### ماذا يحدث عندما تسقط في ثقب أسود

عند هذه المسألة يُتوقع أن تكون درجة حرارة الثقوب السوداء عالية جدا، بل يمكن أن تصل إلى ملايين الدرجات. فعند الاقتراب من الحدود الخارجية للثقب الأسود، والتي تسمى بـ"أفق الحدث" تظهر الجاذبية، وكلما تم الاقتراب من المركز تزداد الجاذبية، وبالتالي تزداد قوة السحب ومن ثم يُنتج الثقب الأسود ما يسمى بـ"قوة المد والجزر" على جسمك، أي إن شدة الجاذبية التي تعمل على رأسك، ستكون أقوى بكثير من الجاذبية التي تعمل على أصابع قدمك (بافتراض أنك تدخل الرأس أولاً). هذا في بادئ الأمر حتى يشمل الفرق جسمك كله وتكون قد قطعت إرباً، لأن قوة المد والجزر ستكون أقوى من الروابط الكيميائية في جسمك وتكون حفنة من ذرات منفصلة، تلك الذرات سوف تمتد إلى خط في مسير موكبي كما وصف تايسون، فستكون مقذوف في السماء مثل معجون أسنان يجري الضغط عليها عن طريق أنبوب... ولا أحد يعرف ما يحدث لتلك الذرات بمجرد وصولها إلى المركز.

### البحث عن ثقب أسود

لا بد أنه سيكون ورد للقارئ سؤال مهم وهو كيف تم اكتشاف هذه الثقوب إذا كانت تتميز بهذه الشراهة التي تتلعب أي شيء، النجوم، الكواكب، الغاز، كل شيء حتى الضوء لا يفلت منها. وإجابة هذا السؤال أنه أمكن معرفة وجود الثقوب السوداء



## الغروب والموت

نغرُبُ - كالشمس - ونموت،  
ولكنَّ الرُّوحَ لا تموت...  
جبالُ المَوجِ، سفينةُ نُوحٍ لم تُغرِق...  
نوحياً فلتكنْ! وإلاَّ أغرقتك المويجةُ،  
وحطمت سفينةَ نجاتك،  
غرفةُ ماءٍ أو نفخةُ ريح...  
أتريد خلاصاً من طوفان الدنيا؟!  
إذن: أسلمْ مقادَ سفينتك لربِّ السَّفينِ،  
والقائلُ للشَّيء "كنْ" فيكون...  
\* \* \*

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية  
www.hiramagazine.com

## الوجه الآخر للموت

أ.د. مأمون فريز جزار \* ❁

للموت في مخيلتنا وواقعنا وثقافتنا الشعبية وجه قبيح. فهو فراق للأحبة، وفيه فناء للجسد بتغييره في التراب، وفيه انقطاع للعمل وطي لصفحات الحياة. ولذلك يصحب الموت حزن ويرافقه أسى، ويكون من بعده حداد، وتقام أيام عزاء يخفف الحزن فيها إقبال الناس بالزيارة والدعاء للميت. إن الموت يرتبط لدى كثير من الناس بظاهر ما يحدث لجسد الإنسان وغياب ما وراء ذلك. ذلك أن المشاهد المحسوس المقطوع به هو أن الإنسان الذي مات يتغير؛ فالجسم يفقد الحياة والحركة والتفاعل والقدرة، كل ذلك يزول ويسلب منه ويتحول إلى جثمان، أي إلى جسد هامد يجثم مكانه ولا يتحرك بنفسه، ثم ما يتبع جثوم الجسد من مسارعة إلى دفنه في القبر، وما يرتبط به الدفن من تحلل الجسد وتلاشييه. فهل هذا هو الموت؟ هل الموت تلاش وفناء وانتهاء لمن كان ملء السمع والبصر والقلب؟ كثيرا ما يتوقف العقل البشري عند هذا المشهد ولا يتابع ما وراءه، إما عجزا عن الإدراك أو تقصيرا في استحضار المشهد الخفي الذي جاءتنا عنه نصوص صحيحة في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ تجعلنا نرى ما لا تراه العين من حقيقة الموت، وما يكون مع الميت بعد

ل



انفصال الروح عن الجسد وانطلاقها إلى أفق لا ندركه بأعيننا ولا نسمع ما يجري فيه بأذاننا.

القرآن الكريم لم يتركنا خيالننا ولا لثقافتنا الشعبية.. القرآن الكريم رسم لنا خط الوجود منذ بداية الخلق إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، مما يقدم نظرة شاملة لا ظلمة فيها، بل هي واضحة لا عوج فيها ولا ضباب ولا جدران ولا منعطفات. ولذلك حين ننظر إلى الموت بنور القرآن الكريم وفي نور المهدي النبوي، نجد مرحلة ضمن مراحل ممتدة في رحلة الخلود. فلئن تخلى الإنسان عن جسده فإن روحه باقية، لأن الروح تولد عند الموت ولادة جديدة. فكما خرج الإنسان من رحم أمه من قبل، يخرج من رحم الدنيا، ويتخلى عن مشيمنتها إلى كون أرحب. ولا بد أن نستحضر عند الموت مشهدين متلازمين: مشهد الجسد الذي خلق من التراب وإلى التراب يعود: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥)، ومشهد الروح التي تحررت من الجسد وانطلقت إلى البرزخ ولم تخرج من عالم وجود إلى عالم فناء.

لقد حدثنا القرآن الكريم عن أحوال الموتى، فالمؤمنون تتلقاهم الملائكة في أحسن حال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢). وحدثنا القرآن الكريم عن الشهداء وبين أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأهم فرحون بما نالوه من المنزلة والأجر، قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧٠).

وبين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها وتأوي إلى فناديل معلقة بالعرش، وأرواح المؤمنين من غير الشهداء طيور خضر تأكل من ثمرات الجنة وتشرب من أنهارها، فليس الموت فناء. وأستذكر هنا كلمة رائعة قالها أبو حازم الأعرج، التابعي الجليل لسليمان بن عبد الملك حين سأله: ما لنا نكره الموت ونحب الحياة؟ فقال: لأنكم عمّرتم دنياكم وخرتتم آخرتكم، فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب. وسأله سليمان: كيف القدوم على الله؟ فأجاب أبو حازم: أما المؤمن فكالغائب يرجع إلى أهله، وأما الكافر أو الفاسق فكالعبد الأبق يرجع إلى سيده.

ونستذكر قول رسول الله ﷺ في وصف الدنيا: "الدنيا سجن

المؤمن وجنة الكافر" (رواه مسلم). فالؤمن حين يخرج منها، حاله حال من يخرج من السجن، فهل يكون السجين حزينا لفراق سجنه؟ ورحم الله بديع الزمان سعيد النورسي الذي ضرب لنا مثلاً للموت في "الكلمات"، مستمداً من بيئة الريف والمدينة بقوله:

"هـب أنه في هذه القرية (بارالا) رجلان اثنان، أحدهما قد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته إلى إسطنبول وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيضاً في طريقه إلى الالتحاق بهم. لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى إسطنبول أشد الاشتياق، بل يفكر بها ويرغب في أن يلتقي الأحباب دائماً. فلو قيل له في أي وقت من الأوقات "هيا اذهب إلى هناك" فإنه سيذهب فرحاً باسماً..

أما الرجل الثاني فقد رحل من أحبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم في، ومنهم من انزوى في أماكن لا ترى. فهلكوا وتفرقوا حسب ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحد، بدلاً من أولئك جميعاً، ويريد أن يغطي به على ألم الفراق الشديد".

وقال رحمه الله في "اللمعات" مبيناً ما وصل إليه من موقف من الموت بعد التفكير والتدبر في نور القرآن:

"فنظرت أول ما نظرت إلى ذلك الوجه الذي يُرعب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً وهو وجه "الموت"، فوجدت بنور القرآن الكريم أن الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبح منور، على الرغم من أن حجاب مظلّم والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد أثبتنا وأوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل، وبخاصة في "الكلمة الثامنة" و"المكتوب العشرين" من أن الموت ليس إعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً أبدياً، وإنما مقدمة وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديل مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ.. وهكذا، يمثل هذه الحقائق شاهدة وجه الموت المليح الصبح. فلا غرو لم أنظر إليه خائفاً وجللاً، وإنما نظرت إليه بشيء من الاشتياق".

هكذا ينظر المؤمن إلى الموت، وعلى عكس هذا الحال سيكون من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ويرى الموت جداراً وسداً لا يعرف ما وراءه. فإنه سيعيش في لوعة وحسرة وحزن لا ينقضي. فشتان بين المؤمن وغير المؤمن في النظرة إلى الموت. ■

(٥) كاتب وأديب أردني.



# الاضطرابات النفسية

## بين نظريات الطب النفسي وحقائق القرآن الكريم

د. أحمد محمد شعبان \*

وتشير الإحصائيات التي أجريت في عدد من العواصم العالمية، إلى وجود أعداد هائلة من المرضى الذين يعانون من اضطرابات نفسية، وقدرت أعدادهم في الولايات المتحدة قبل نصف قرن بما لا يقل عن عشرة ملايين شخص. ورغم كل ذلك يقف علماء الطب النفسي -حتى الآن- عاجزين عن الوصول إلى الأسباب الحقيقية وراء هذه الاضطرابات. فكل ما توصلوا إليه لا يعدو أن يكون من قبيل النظريات التي وجدت لها في الواقع بعض الدعم. ويعتذرون عن تأخرهم في الوصول إلى الحقيقة بأن المعلومات

الاضطرابات النفسية هي انحرافٌ في سلوك الإنسان وتصرفاته يؤدي به إلى الضعف والقلق والصراع النفسي، ويصبح عاجزاً عن ممارسة

حياته بصورة سوية.

وأشهرها القلق والاكتئاب والوسواس القهري وتوهم المرض والخوف (الرهاب) والأرق.

ولا يزال علماء الطب النفسي يجاهدون لمعرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه الاضطرابات التي أصبحت من أبرز ظواهر هذا العصر.





النفسي الناتج عن مواقف الاختيار التي يفشل فيها الفرد في اتخاذ القرار، والمعارف الخاطئة التي يحصل عليها، والوجدان السلبي نحو ما يحيط به من أحداث، تعتبر كلها عوامل تساهم في إحداث الاضطرابات النفسية.

**د- العوامل الوراثية:** وقد اعتمدوا في تأكيدهم لدور الوراثة في إصابة الإنسان بالاضطراب النفسي على النتائج التي توصلوا إليها عندما وجدوا أن نسبة الإصابة بالفصام عند التوائم الحقيقية أكثر منها عند التوائم الكاذبة، كما أن احتمال إصابة الابن بالتبني من أبيه المصاب أقل وقوعاً منه في أبنائه الحقيقيين.

هذه هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى الإصابة بالاضطراب النفسي عند علماء النفس، وهي ليست على درجة واحدة من التأثير في الإنسان، بل إنهم اختلفوا في مستويات تأثيرها، وتشكل من هذا الاختلاف ثلاث نظريات:

#### ١- النظرية البيوفسيولوجية

وقد اعتبر أصحاب هذه النظرية أن الوراثة هي السبب الأول والأخير في إصابة الإنسان بالاضطرابات النفسية وقالوا: "إن الوراثة هي التي تحدد خصائص الشخصية، وتحدد البيئة التي تنمو فيها، فارتقاء الإنسان السوي والشاذ محدد من قبل الجينات". وشخصية الإنسان عند أصحاب هذه النظرية كالفيلم الذي تم تصويره، والبيئة كالأحماض التي تستعمل في إظهار ما على الفيلم، وسلوكه مرآة لما طبع في شخصيته من خصائص وراثية مبرجة في جيناته قبل أن يولد. وهذا يعني عندهم أن سلوك المنحرف رد فعل لتركيبه البيولوجي.

غير أن النتائج التي توصلوا إليها لا تزال ماثرة شك كبير، لأن معظم الفصامين ليسوا من التوائم، وليس بين أيدينا ما يثبت انتقال الصفات النفسية من خلال الجينات.

عنها لا تزال شحيحة نظراً لتعدد الظاهرة النفسية، وقدرة المصاب بها على المقاومة والتعمية.

وإذا كان هذا العذر قد يبدو مقبولاً من أولئك الغربيين الذين أقصوا الوحي من مصادر المعرفة وقصروها على الواقع المشاهد فقط من خلال التجريب، فالباحث المسلم غير معذور البتة، لأنه لم يقع في المعاناة التي وقعوا فيها والتي فرضها الصراع بين المنهج التجريبي ودينهم. فقد أثبتت الدراسات وبشكل لا يدع مجالاً للشك، التوافق التام بين ما ثبت من الحقائق العلمية عن طريق المنهج التجريبي وبين ما ثبت عن طريق القرآن الكريم.

وأبرز الأسباب التي استأنسوا بها حتى الآن أربعة هي:

**أ- العوامل المتصلة بالتنشئة الأسرية:** ويعبرون عنها أحياناً بالخبرات المؤلمة زمن الطفولة المبكرة، كحرمان الطفل من الحب والتفاهم والقبول، وعدم حمايته من رفقاء السوء أو من الخبرات السلوكية الضارة أو من المعارف المعوقة للنمو الأخلاقي السليم.

**ب- العوامل الاقتصادية والاجتماعية:** ويعبر عنها أحياناً بالأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي، كالتعطل عن العمل أو الانتماء إلى طبقة اقتصادية متدنية في مجتمع الفوارق الاقتصادية أو الشعور بالضعف الاجتماعية أو ضعف السند في مجتمع معيارٍ الترقّي فيه الوساطة والمعارف والعائلة.

**ج- العوامل النفسية:** ويختلفون في التعبير عنها تبعاً للمدارس المتنوعة التي ظهرت في هذا العلم. فقد اهتم التحليليون النفسيون بالصرعات النفسية اللاشعورية، وزعموا أنها ناتجة عن دفعات غريزية أو عن مكبوتات باحثة عن اللذة دونما أي قيد أو عن صولة القيم المغالية التي تحاول -حسب زعمهم- أن تسلك الفرد عن واقعه وتغريه عن هذا الواقع.

وذهب أصحاب المدرسة السلوكية إلى أن الصراع

## ٢- النظرية البيو-اجتماعية

ويركز أصحابها على دور الوراثة الأكبر في الانحرافات النفسية، لكنهم يعطون للبيئة دورا في ذلك فيقولون: "إن الخلل النفسي الوراثي المنشأ لا يفعل فعله إلا إذا تهيأت له ظروف بيئية ضاغطة". وقد علق الدكتور كمال إبراهيم مرسى على النظريتين السابقتين بأكما بالعتا في توضيح دور الوراثة وهميش دور البيئة، حتى أصبح السلوك الإنساني جبريا مقدرًا في الجينات، وسجل عليهما عددا من الملاحظات من أهمها:

- فشلهما في تفسير الانحرافات النفسية التي ليس لها سبب عضوي.

- فشلهما في تفسير عدم انحراف كثير من الأشخاص الذين يحملون شذوذا فيسولوجيا أو خللا بيولوجيا.

## ٣- النظرية التفاعلية

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الاستعدادات النفسية التي تجعل الشخص مهيا للانحرافات النفسية الظاهرة تتكون من تفاعل المعطيات الوراثية المعية، والظروف البيئية الضاغطة، فلا الوراثة وحدها كافية لنموها، ولا الظروف البيئية الضاغطة وحدها كذلك، بل لا بد من تفاعل كلا الأمرين معا.

## القرآن يقتلع الاضطراب النفسي

والمأمل في النظريات المتقدمة يدرك أنها تدخل ضمن الإطار العام للعلم الذي حث القرآن الكريم على طلبه والوصول إليه في غير ما آية من كتاب الله ﷻ، بيد أنها تبقى ضمن دائرة احتمال الخطأ والصواب. وهذا الاحتمال يقف منه القرآن الكريم موقفا داعما لبذل مزيد من الجهد والدراسات فيه حتى يصل إلى درجة الحقيقة العلمية.

ويستثنى من إطار النظريات التي يدعمها القرآن الكريم تلك التي بناها أصحابها -بقصد أو بغير قصد- على أسس وقواعد تتناقض مع حقائق القرآن الثابتة.

ومن هذه النظريات، النظرية البيوفسيولوجية والتي اعتبر أصحابها أن الوراثة هي السبب الأول والأخير في إصابة الإنسان بالاضطرابات النفسية، وبالتالي فإن سلوكه المنحرف ما هو إلا رد فعل لتركيبه البيولوجي.

فهذه النظرية تتصادم مع مسلمات القرآن الكريم في تأكيده على منح الإنسان جزءاً من الحرية لاختيار الخير أو الشر، الفساد أو الصلاح، الهداية أو الضلال.. ومن ثم طلب منه السعي إلى سلوك طريق الهداية وتزكية النفس، ووعده الثواب على ذلك، ونهاه عن سلوك طريق الغواية واتباع هوى النفس، وأوعده العقاب على ذلك. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿١٠﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿١٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿١٣﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿١٤﴾﴾ (النازعات: ٣٧-٤١)، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس: ٧-١٠).

وفي مقابل ما توصل إليه الطب النفسي من أسباب لحدوث الاضطرابات النفسية، نجد القرآن الكريم يشير إلى السبب الرئيس والأهم في إصابة الإنسان بالاضطراب النفسي، ألا وهو الجهل بالحقيقة المطلقة لهذا الوجود. وهذا الجهل ناتج عن الكفر بالله والبعد عن الركون إلى جنباه العظيم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بألفاظ مختلفة. تأمل على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الكهف: ٢٨)، وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، بل تأمل معي قوله تعالى وهو يسير أغوار النفوس ليصف لنا حقيقة المؤمن بالله وما يتمتع به من أنوار، وحقيقة الكافر به وما يخيم على قلبه من



هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة. وأستطيع أن أقول إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها، وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرتة الدينية في الحياة". ومن أراد الاطلاع على شواهد هذه الحقيقة فليقرأ بتمعن تاريخ المجتمع الإسلامي الأول الذي عاشه النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوانه الله عليكم أجمعين. فقد سطرت لنا كتب الأحاديث النبوية والسيرة والتاريخ أن هذه الثلة من الناس قد وصلت في عيشها إلى ذروة الاطمئنان النفسي، رغم كل الأخطار التي كانت تحدق بها، والظروف الصعبة التي كانت تمر عليها من جوع وفقر وشدة.. ولم يسطر لنا التاريخ في مراحلها الطويلة أن جماعة من الناس استطاعت من فرط الاطمئنان النفسي أن تنام بين صفى القتال رغم قلة عددها وعدتها وكثرة عدوها وشدته سوى هذه الثلة التي ملأت قلوبها إيمانا بالله وحباً له واعتماداً عليه.

والسؤال الذي يفرض نفسه في نهاية المطاف هو: لماذا أغفل علماء الطب النفسي هذه الحقيقة رغم اعترافهم الصريح بعدم الوصول حتى الآن إلى الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء الاضطرابات الإنسانية؟

والجواب يكمن كما أشرنا في بداية الحديث في التصور المعرفي الذي هو بمثابة العقيدة التي يفسر الباحث أو الطبيب من خلالها الظواهر التي يدرسها، ويشق منها المسلمات التي يستند إليها في بحثه.. وهذه العقيدة أو هذا التصور - كما قلنا - إذا كان صواباً ووجه الباحث وجهة صحيحة، وإذا كان منحرفاً فالنتائج التي يقود إليها منحرفة.

والحديث عن مكنم الانحراف في هذا التصور يتلخص في إنكار الوحي الصادق الذي أدى إلى حرمان الفكر الغربي كثيراً من الحقائق والعلوم التي جاؤوا بها. ■

(\*) رئيس قسم البحوث بمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة / السعودية.

ظلمات فيقول: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَبِينًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢). ومن هنا كانت حياة القرابين من الله مليئة بالسعادة الحقيقة مهما اكتنفها من مصاعب أو ظروف، بينما نجد أن حياة البعيدين عنه سبحانه في شقاء وضنك مهما تيسر لها من المتع والملاذات: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ \* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

ولست بحاجة لأن أحرر أية إحصائية أو دراسة تحليلية لمعرفة مدى انطباق هذه القاعدة الكلية على الواقع، ليس من مبدأ إيماني العميق بما يقوله القرآن الكريم فحسب، بل بما أشاهده وأعايشه وأعاينه كل يوم من الوقائع القرية والبعيدة وعلى امتداد العام بأسره.

### الإيمان يجلب الطمأنينة

ومن هنا يقول سيد قطب رحمه الله: "والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع.. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر؛ الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان".

يقول "كارل يونغ" أحد المحللين النفسيين: "استثنائي في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة. وعالجت مئات كثيرة من المرضى، فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في المنتصف الثاني من عمرهم - أي جاوزوا سن الخامسة والثلاثين - من لم تكن مشكلته في أساسها

# السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

## سلاطين بني عثمان

### قلوبٌ احترقت في حب الرسول ﷺ

❖ ضياء ديميرال \* ❖

لقد حملت الدولة العثمانية منذ أن بزغ فجرها في القرن الثالث عشر، هموم الأمة الإسلامية بكل فخر واعتزاز، وسَعَت بكل ما أوتيت من قوة إلى رعاية هذه الأمة وتأمين أمنها وراحتها وسلامتها في كل نواحي الحياة. كما حرصت كل الحرص على نصره الإسلام ونشر مبادئه وقيمه في أرجاء المعمورة، ثم رفع رايته خفاقة على جميع الأقاليم والبلدان... وما إن نتجول بين صفحات التاريخ ونتفحص المعلومات عن حياة سلاطين آل عثمان، حتى نجد معظمهم دائماً في مقدمة الصفوف يمتطون أحصنتهم ويقاتلون في ميادين الحرب ببسالة منقطعة النظير. وعندما لم يقدرُوا على المشاركة في حرب ما، عدّوا أنفسهم عدمي الحظ وفاضت عيونهم بالدموع وامتلأت قلوبهم بالحزن والأسى.. إنهم نذروا أنفسهم للإسلام، واعتبروا الدفاع عن الإسلام وقيمه مسؤولية عظيمة لا بد أن تؤدي، فساروا قدماً أمام الأمة بصدق وإخلاص مقتدين بنهج رسولهم ﷺ ومتبعين سنته أفضل اتباع.



منمنمة للسلطان سليمان القانوني

ذهبية من أملاكي هذه، على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة في قبة الصخرة بساحة المسجد الأقصى".

وإذا ما أمعنا النظر في هذه الوصية نرى بوضوح حب السلطان مراد الثاني لله ﷻ ولرسوله ﷺ. لأن أراضي الحجاز (مكة المكرمة-المدينة المنورة) والقدس (المسجد الأقصى) في تلك الآونة لم تكن في حوزة الدولة العثمانية بعد. وما هذا إلا تعبير عن الحب الذي سكن بين ثناياه وأترع قلبه. فهو لحرمة الأقدام المباركة التي لمست تربة تلك الأراضي، وحرمة أهالي تلك المنطقة، أبدى هذا السخاء وجاء بهذا العطاء.

العام ١٤٥٣... القائد فتى في ريعان شبابه يقود جيشه في ملحمة فتح إسطنبول ونشر الإسلام.. وهو صاحب بشارة الرسول ﷺ.. نصب خبائه أمام أسوار إسطنبول ليفتحها بإذن ربه في فجر يوم الجمعة.. يخرج القائد العظيم في إحدى الليالي إلى شيخه "أق شمس الدين" وييدي رغبته في العثور على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ الذي قام باستضافة الرسول ﷺ في بيته عقب الهجرة النبوية... وكان أبو أيوب الأنصاري

ومما يجدر ذكره أن السلاطين العثمانيين تربوا وترعرعوا منذ نعومة أظفارهم على حب الرسول ﷺ والتأسي بسنته الطاهرة.. نقشوا اسمه ﷺ على قلوبهم، وأمضوا معظم حياتهم على ظهور الخيول من أجل أن تيسر الرسالة المحمدية أجنحتها وتحلق في سماء البشرية، ولكي يشع نوره ﷺ في العالم كافة. هذا الحب الذي جرى في أرواحهم وتغلغل في أعماقهم، حوّلهم إلى أناس يحترمون كل شيء يخص الرسول ﷺ. ونتيجة لهذا الحب نشأ عندهم مظهر من مظاهر الجهاد الروحي، فسعوا جاهدين إلى فتح القلوب أولاً ثم إلى فتح القلاع والأراضي، بغية أن ينتروا - كما أمرهم دينهم الحنيف - بذور القيم والمبادئ التي تنبثق منها الحضارة الإنسانية وبنيت منها منهج الحياة والأخلاق المبنية على الحب والتسامح والكرامة.

احتل الرسول ﷺ في أفئدة هؤلاء الناس الطيبين مكاناً رفيعاً خاصاً، فأصبح اسمه ﷺ يتردد على ألسنتهم في كل لحظة؛ في حياتهم اليومية، وأشعارهم المدحية، وأذكارهم الشخصية.. كما أن هذه المدائح الشريفة التي نقشوها على صفحات التاريخ بأقلامهم النيرة لا زالت لسان عشاق الرسول ﷺ وترجمان مشاعرهم حتى يومنا هذا.. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة الواقعية عن أولئك الأفاضل وعن حياتهم المثالية التي عاشوها..

ظلال حزن، وسكون كثيب قد خيم على جنبات الغرفة.. رجال القصر ملتفون حول سرير السلطان وهو يرقد على فراش الموت.. الكل من حوله يترقب حركة شفثيه.. فتح السلطان مراد الثاني عينيه ليلمح وزيره، قال بصوت خافت:

- اقرأ يا إسحاق، اقرأ وصيتنا!

فبدأ إسحاق باشا يقرأ الوصية بصوت عال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. توكلت على الله رب العرش العظيم. كل نفس ذائقة الموت. فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.. أما بعد؛ أوصيكم بأن توزعوا ثلث أملاكي في ولاية "صاروهان"؛ على أن يكون ٣٥٠٠ قطعة ذهبية منها إلى فقراء مكة المكرمة، و ٣٥٠٠ قطعة ذهبية إلى فقراء المدينة المنورة. ووزعوا ٥٠٠ قطعة أخرى على الذين يكثرون من تلاوة القرآن الكريم من أهالي مكة المكرمة في حرم بيت الله ثم يرددون كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ٧٠ ألف مرة ويهدون ثوابها للموصي، وأوصيكم أن توزعوا ٢٥٠٠ قطعة



قد خرج مع جيش المسلمين لفتح إسطنبول في عهد الأمويين واستشهد تحت أسوارها. فيخرج "أق شمس الدين" برفقة السلطان من الخيمة. ويصلا إلى ساحل القرن الذهبي، وهناك يشير الشيخ إلى مكان قريب من الأسوار ويقول: "ها هنا القبر يا جلالة السلطان". فيأمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جامع وضريح في هذا المكان على الفور. وبعد الفتح بيني الجامع والضريح نصل من هذه القصة إلى نتيجة أن السلاطين العثمانيين أبدوا حبا جماً ليس للرسول ﷺ فحسب، بل لأصحابه الذين حملوا رائحته العطرة ورائحة بلدته الطاهرة أيضاً.

ولقد ورث السلطان محمد الفاتح هذه المحبة لابنه السلطان بيازيد الثاني أيضاً... يقوم السلطان بيازيد خان بزيارة صديقه الذي يحبه في الله "بابا يوسف" لتوديعه قبل ذهابه إلى الحج، يسلمه كمية من الذهب ويقول: "هذا ما رزقني الله به من عرق جيبي. ولقد ادخرته من أجل صيانة قناديل الروضة المطهرة. عندما تف في حضرة الرسول ﷺ أريد منك أن تقول: يا رسول الله، خادمك الفقير "بيازيد" يقرئك السلام ويقول لك: إنه قد أرسل هذه القطع من الذهب لشراء زيت قناديل الروضة، فاقبلها منه..".

وفي عهد السلطان سليم الأول نرى أن هذا الحب النبوي يكتسب بُعداً آخر؛ حيث تنضم أراضي الحجاز في عهده إلى الدولة العثمانية ويتوحد العالم الإسلامي تحت راية واحدة.

وسرعان ما يذيع صيت السلطان سليم في العالم الإسلامي، ويبدأ الخطباء في المساجد يقرأون الخطب باسمه مستخدمين لقب "حاكم الحرمين". إلا أن السلطان سليم لم يكن راضياً عن هذا اللقب أبداً. وفي يوم من الأيام وهو يصلي صلاة الجمعة في الجامع الكبير بحلب، يسمع هذه اللفظة من خطيب الجامع، فيهب مسرعاً ويقول: "لا، لا، لستُ حاكماً للحرمين، بل خادماً لهما"، فيعدل الخطيب كلامه كما أشار به السلطان. وبعد الصلاة يقوم السلطان بتقديم قفطانه هدية إلى الخطيب وشكراً له. فيهذا يشهد له التاريخ مرة أخرى احترامه وحبه العميق تجاه سيدنا رسول الله ﷺ. والجدير بالذكر أنه كان من بين سلاطين آل عثمان من رأى

الرسول ﷺ في المنام. وبالأوامر والإشارات التي تلقاها منه ﷺ تمكّن من فتح بلاد عديدة بإذن الله ﷻ. والدليل على ذلك رؤية السلطان سليمان القانوني، إذ رأى الرسول ﷺ يقول له: "إذا ما فتحت قلاع بلغراد ورودوس وبغداد، فقم بإعمار مدينتي". فسرعان ما يأمر السلطان بإعمار أراضي الحرمين ووضع مشاريع الإسكان لها. حتى إنه ترك وصية يطلب فيها أن يُنشأ من ثروته الخاصة وقفٌ خيرى يلبى حاجة الميَاه لحجاج بيت الله الحرام. وبعد وفاته قامت ابنته "مهراه سلطان" بتحقيق وصيته وأمرت بحلب مياه عين زبيدة من عرفات إلى مكة المكرمة. وقد نرى هذا القائد العظيم الذي وقف العالم كله إجلالاً واحتراماً له، يتوجه في إسطنبول نحو القبلة ويناجي بلسان الحب رسول الله ﷺ منشداً:

يا حبيب الله يا ضياء العالين  
ببابك العالي وقف العاشقون  
فإن داء لساني بذكرك يشفى  
فؤادي المكروب بك يفرح  
وقلبي المجرع أنت ضماده

ولم تُنقِص الأيام من بحر عشقهم للرسول ﷺ مثقال ذرة، بل تضاعف وتضاعف حتى تحول إلى محيط لا حد له ولا قرار.. السلطان أحمد الأول، يصعد العرش في وقت حرج، حيث تسود الاضطرابات وتنتشر الفوضى في معظم الأراضي العثمانية. إلا أن هذا السلطان الشاب المهوم كان مفعماً بالروح المعنوية العالية. فراح يبحث عن الدواء في عصره الذي يعيش فيه ولكن دون جدوى، فيقرر في نهاية المطاف أن يرجع إلى الماضي ويبحث عن غرضه هناك.. فيخرج في إحدى الليالي خفية إلى جناح الأمانات المقدسة بقصر طوب قاي... يمسك نعل الرسول ﷺ ويضمه إلى صدره ثم يقول بحركة قلب:

ليتني أحمل نعلك الشريف دائماً على رأسي كالتاج

يا صاحب النعل الكريم، يا وردة حديقة الأنبياء

ليتني أمسح وجهي دائماً على أثر قدمك يا وردة الورود.. ومنذ ذلك الوقت أخذ السلطان أحمد الأول يحمل صورة لأثر القدم النبوي الشريف داخل قفطانه. ونراه في موضع آخر، يحترق بلهب العشق النبوي هذا ويقول:

فما عاد الفؤاد يتحمل فراقك

وما عاد اللسان يتحرك بسواك

غدا حبي عشقاً



فأبكاني أنا الفقير، حتى نفذت دموع قلبي  
وما بقيت فيه دمعة، كمثل يعقوب عليه السلام.

وكان السلطان عبد العزيز أيضاً من عشاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ففي إحدى الأيام وصلت رسالة إلى القصر من المدينة المنورة، وكان السلطان في تلك اللحظة مصاباً بمرض شديد أقعده في الفراش. فتردد رجال الدولة بادئ الأمر في تقديم الرسالة إلى السلطان عبد العزيز بسبب مرضه هذا، ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه، مدى حساسيته تجاه المدينة المنورة وحبها لها، فاضطروا إلى تقديمها له في نهاية الأمر. وعندما اقترب الوزير منه وأخبره أن رسالة وصلت من المدينة المنورة، لمعت عينا السلطان وطلب من الوزير ألا يبدأ بالقراءة حتى يأمره بذلك، ثم قال لمن حوله: "ارفعوني.. فلا يمكن أن أسمع رسالة وصلت من الأراضي المقدسة وأنا نائم". واستمع إلى ما في الرسالة واقفا على رجليه رغم وطأة المرض.. ومما يجدر ذكره هنا، أن السلطان عبد العزيز كان لا يتناول أي ملف أو أوراق قادمة من المدينة المنورة دون أن يجدد الوضوء. لأن هذه الأوراق بالنسبة له تحمل غبار بلدة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورائحته العطرة. لذا كان يقبلها أولاً ثم يضعها على جبينه ثم يشمها بجمرة ثم يفتحها ليقرأها.

تولى السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في منتهى السوء والاضطراب، سواء في الأوضاع الداخلية أو الخارجية.. وفي وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تقلد السلطان عبد الحميد الحكم، وبدأ في العمل بكل ما أوتي من قوة ليوحد المسلمين من جديد تحت راية الإسلام. فقام في عهده بتنفيذ مشاريع مهمة غاية الأهمية، منها إنشاء خط حديد الحجاز الذي امتد من إسطنبول إلى المدينة المنورة. وكانت الغاية العظيمة في ذلك، الدفاع عن الأراضي المقدسة من هجمات العدو ثم تأمين راحة الحجاج خلال رحلتهم إلى الحرمين الشريفين.

ومما نريد لفت الأنظار إليه في هذا الصدد أنه، قد جرى إنشاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي المهندسين والعمال المسلمين فقط، لأن هذا الجزء كان داخل حدود منطقة الحرم. وعندما وصل الخط إلى المدينة المنورة في ٣١ أغسطس من عام ١٩٠٨، أمر السلطان عبد الحميد الثاني بأن يُمدَّ اللباد على الخط في آخر ثلاثين كيلومتراً منه؛ كما أن مقطورة القطار كانت عند وصولها إلى المدينة المنورة تخفض من سرعتها وتقرب من رصيف المحطة ببطء حتى لا تزعج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ثم ينزل الركاب من القطار ماشين على أطراف أقدامهم بتأدب واحترام... أما اللباد الممدود على سكة الحديد فيتم غسله بماء الورد خلال كل يوم في ساعات معينة. وذلك احتراماً لتلك الأراضي المباركة وتقديساً لها.

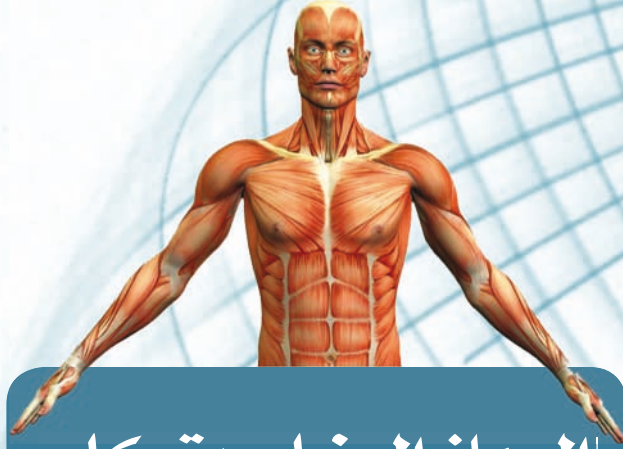
لقد حمل سلاطين بني عثمان من أولهم إلى آخرهم، مشاعر عذبة وحباً فياضاً ولهفة شديدة إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وإلى القرب منه. ولعل أهم ميراث تركوه لنا هو هذا الحب النقي الصافي. ■

(٥) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



المكرّسون أنفسهم للصالح والإصلاح قد ينسون منافعهم الشخصية،  
ولكنهم لا ينسون أفعال منفعته تخص الأمة.

\*\*\*



## الجهاز العضلي يتكلم

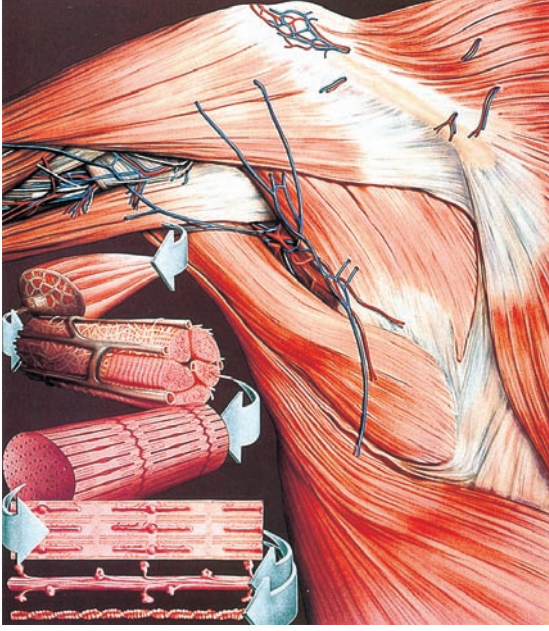
أ.د. عرفان يلماز \*

التحرك والتنقل، إنما جعلك الله خليفة له في الأرض، تسيح فيها وتمشي في مناكبها، خلقك الله لتتعلم وتكشف عن المكونات والمخبوءات في هذا الوجود، ولتنثر بذور القيم الفاضلة وتقيم الحضارات العريقة. ولكن من أجل أن تؤدي مهمتك هذه بحق، لا بد -قبل كل شيء- أن تملك الحرية في تغيير أوضاعك وتبديل أماكنتك، أي لا بد من أن تملك قدرة للتحرك كيفما شئت. ولهذا جعلني الله لك جهازاً كاملاً يتكوّن من ملايين الخلايا ومئات العضلات، ووضعني لخدمتك فقط. ومن أهم خاصيّاتي، هي امتلاكي الخلايا التي تتحرك باستهلاك السكريات -كمحرك السيارة تماماً الذي يعمل بحرق البنزين- ولديّ ألياف عضلية قادرة على الانقباض والانبساط داخل خلاياها، وهي تمنح هذه الخلايا القدرة

ع  
عزيري عبد الله.. أريد أن أتحدث معك قليلاً.. أنا جهازك العضلي الذي تتحرك به وتصول أين شئت. كما تعلم إن الصخور تتميز بالصلابة، وكذلك الأشجار كائنات حية وصلبة في الوقت نفسه، ولكنها غير قادرة على التحرك، مغروسة في الأرض لا تهتز ولا تتحرك، لأنها لا تملك جهازاً يمكنها من الحركة. أما أنت فيا عبد الله.. فقد خلقت في أحسن تقويم، وتستطيع التحرك كيفما شئت. وإن كانت الحيوانات كلها قادرة على التحرك -بدرجات مختلفة- بواسطة أنسجتها العضلية، فاعلم أنك لم تخلق لتكون كالحيوانات تسعى وترعى لتلبي رغباتها وشهواتها فحسب دون أي إدراك ووعي، أو لم تُخلق لتكون كالشجر مغروساً في الأرض عاجزاً عن







على القصر والاستطالة التي منهما تتولد قوة السحب. ونتيجة لهذه القوة أتمكّن من تحريك العظام التي أتصل بها أو من تحريك عضو جسم آخر وأحدثُ بذلك تغييرات ميكانيكية. واعلم عزيزي عبد الله، أن عظام جسدك وسائر أعضائك -عدا قلبك- لا تملك قدرة التحرك من تلقاء نفسها، بل تستجيب لتوجيهات عضلاتي فقط. وقد تعني العضلة؛ العضو والنسيج معا. ولكوني نسيجاً عضلياً أقوم بالمحافظة على خاصية الانقباض على مستوى الأعضاء والأجهزة، ولكوني حُلقتُ في كل أطراف الجسم، فقد تم تكويني من عدد كبير من الحزم التي تحتوي على الألياف العضلية الطويلة الرفيعة. وحتى تفهمني بشكل أفضل، سأشرح لك بنية العضلة وتركيبها بطريقة بسيطة.. لنعبر بكرة الخيط الرفيع هي الخلية العضلية، ثم لنجمع عدداً كبيراً من خيوط هذه البكرة ونصنع منها "فتلة" واحدة رفيعة، ثم لنجمع عدداً من هذه الفتل ونصنع منها خيوطاً نسيجية، ثم لنجعل من هذه الخيوط النسيجية حبلاً غليظاً. والآن يمكنك أن تتصور ذلك الحبل الغليظ كعضلة من عضلات جسدك. إن ألياف العضلية تتكون من خيوط بروتينية -بدلاً من الألياف القطنية في بكرة الخيط الرفيع- وهي خيوط الأكتين الرفيعة وخيوط الميوسين الغليظة، وهما اللذان يمدحان الليفة العضلية قدرة الانقباض. وقد اصطفّت هذه الخيوط مقابل بعضها البعض كأسنان مشطين، وعند الانقباض تنزلق خيوط الأكتين تجاه خيوط الميوسين، ويتم بذلك الانقباض العضلي. ومن ثم تظهر عملية الانقباض والانبساط، تماماً مثلما تتداخل وتتباعد أسنان المشط مع أسنان مشط آخر. عزيزي عبد الله.. شرحتُ لك خصائص تلك البنية العضلية العظيمة ويسرتُ عليك فهمها، فصورتها لك بالخيوط والأحبال.. ولكني أسألك الآن، هل يمكن أن تتشكل تلك البنية العظيمة من تلقاء نفسها؟ وهل يمكن أن تتكون صدفة؟ إن أصغر قطعة من القماش لم تكن لولا ما كينة تنتجها ويد صانع تبدها. فما بالك إذن، بكل عضلة من عضلات جسدك؛ تلك التي تتألف من ملايين الألياف العضلية وتحيط كل عظمة من عظامك، كما أنها

تقيم جسدك وتسويه.. أتراها تلك الألياف العضلية قد نُسجت بهذا التقدير وتموضعت بهذه الحكمة حتى صارت في أحسن تقويم دون صانع يصنعها، أم تراها قد خلقت عبثاً؟ يختلف شكل وحجم عضلاتي التي تتألف من الحزم المتكوّنة من آلاف ألياف العضلية، حسب موضعها وحسب العظام التي تتصل بها والمهام المنوطة بها. فهناك "العضلات الهيكلية الحمراء" التي تقوم بتحريك عظام الساقين والذراعين، وهي عضلات طويلة مدببة الطرفين منتفخة الوسط. وهناك أيضاً "عضلات ملساء" وهي التي تربط أعضاء جذعك وعظامه، وتكون ذات سطح أكثر اتساعاً واستدارة. فأما العضلات الحمراء فتوجد حول الهيكل العظمي وتميز بقوتها الشديدة أيّاً كان شكلها وحجمها، كما أنها تعمل حسب طوعك وتحت قيادتك. فأنت تستخدم دائماً عضلاتي "الحمراء المخططة" في مشيك وجريك وقيامك وقعودك. تتألف هذه العضلات من بنية نسيجية "مغزلية"، ولذا تُرى تحت الميكروسكوب عضلات مخططة، وهي تشكل القسم الأكبر من عضلات جسدك.

وأما النوع الآخر فهو "العضلات الملساء" أو "العضلات اللاإرادية"، أي العضلات التي لا تستجيب لأوامرك. إنها تتحرك ببطء، وفترة انقباضها تكون



طويلة ودون أي تعب، وإنما تبطن جدران قنواتك الهضمية وشرائينك الدموية ومسالكك البولوية. إن هذه العضلات في الحقيقة لا سلطان لها عليك في ذهابك أو إيابك، لأنها لا تعمل تحت قيادة هيكلك العظمي، فلا هم لها ولا شاغل غير حركة أعضائك الداخلية. وقلبك أيضا -رغم اختلاف نسيجه العضلي المخطط- من الأعضاء التي تعمل خارج إرادتك. لذا عليك أن تعرف، أن المقصود من الجهاز العضلي هو تلك العضلات المخططة التي تؤدي دورها في حركة الهيكل العظمي. لقد زوّد الله جسدك بعدد من العظام لتمنحه استقامته واستواءه، وجعل بين العظام مفاصل لتمنحه مزيداً من الحركة والانسيايية، بيد أن هذه المفاصل تعجز عن الحركة بمفردها. فعلى سبيل المثال؛ مهما بلغ باب أو نافذة من اكتمال الصنعة وحسن التشكيل، فإنه يعجز عن الانفتاح أو الانغلاق دون قوة دافعة أو ساحبة. هذا الأمر ينطبق على المفاصل تماماً، إذ ليس بين المفاصل مفصل يتحرك دون قوة خارجية، وعليه فإن جهازك العضلي هو الذي ينتج القوة التي تحرك مفاصلك وتوجهها. فهناك في نظام الحركة حوالي (٣٤٠) عضلة. ومن هذه العضلات ما تؤدي أكثر من مهمة.. وإذا ما أخذنا هذا الجانب بعين الاعتبار، ندرك أن عضلات الجسم تنجز (٥١٠) مهمة مختلفة. كما أن معظم هذه العضلات تحرك العظام والمفاصل، وأما بعضها الآخر فيمكن أن يؤدي وظائف مختلفة بعيدة عن العظام، كعضلات الجبهة والوجه والجفون وعضلات البطن.



ولقد أصبح من المعتاد تسمية العضلة وفق ما تقوم به من مهام داخل الجهاز العضلي، فيطلق مثلاً اسم الضامة (Abductor) على العضلة التي تقرب جزءاً من أعضاء الجسم إلى الجزء الآخر منه، والباسطة (Extensor) على العضلة التي تسحب جزءاً من الهيكل العظمي، والقابضة (Flexor) على العضلة التي تثني جزءاً منه، والرافعة (Levator) على العضلة التي ترفع جزءاً من الهيكل العظمي، والكابحة (Pronator) على العضلة التي تُدير إلى الداخل جزء منه، والدوارة (Rotator) على العضلة التي تلف ذلك الجزء، والاستلقائية (Supinator) على العضلة التي تديره إلى الخارج.

إن أجزاء العضلية تتسم بالقوة والمرونة، وهي ما تجعلك قادراً على أداء كل حركة يتطلبها جسمك براحة ويسر. كما أن أجزائي العضلية تتميز أيضاً بقدرتها على تقوية ذاتها إذا ما ارتبطت بأداء منظم. وكما هو معلوم فإن هدف كل رياضي في منافسة رياضية يتمثل في تقوية عضلاته وجعلها أكثر تحملاً. وألباني العضلية تزداد حجماً وقوة إذا ما قامت بجهود مكثفة وسريعة على فترات طويلة. وبهذه الكيفية أكتسب القوة التي تمكنني من أداء المزيد من الأعمال والقدرة على الانقباض السريع. ولكن عليك ألا تنسى أن العوامل الوراثية أيضاً تلعب دوراً مهماً في هذا الانقباض عدا التدريبات الرياضية والمجهودات الشاقة. ومن هنا فليس ثمة قاعدة تقول بأن كل متدرب سيصبح رياضياً بارزاً، فالأمر كله يرجع إلى مدى ملائمة عضلات الرياضي وعظامه جينياً، فهي وحدها التي تمكنه من الارتقاء إلى أعلى المستويات من خلال



التدريب، ومن دونها لا يحق لنا أن ننتظر من رياضي - لا يمتلك بنية عضلية تتلاءم مع رياضة ما- أن يصبح بطلاً رياضياً. ولئن بدت عضلاتي للوهلة الأولى من الخارج عضلات ذات شكل ونمط واحد، إلا أنها تتسم بسمات مختلفة حسب توزيع أليافي الداخلية وكثافتها، حيث تختلف انقباضات وانبساطات أليافي العضلية فيما بينها من حيث السرعة والبطء. فالحركات التي يعتاد كل شخص القيام بها، والرياضات التي يمكنه ممارستها تختلف أيضا حسب توزيع هذه الألياف العضلية. فثمة فرق في حجم وتوزيع الألياف العضلية الخاصة بين العداء الرياضي الذي يقطع مسافات قصيرة مثل (١٠٠ متر) وبين العداء الذي يقطع مسافات متوسطة (١٠,٠٠٠ متر).

إن انقباض أي عضلة يكون في نوعين مختلفين؛ إذا كانت القوة التي تؤثر على عضلي أكثر من مقاومة نسيجها فإن توتر العضلة يظل ثابتا ويقصر طولها (العضلة). وقد تسمى هذه الحالة بـ"متساوي التوتر" (Isotonic)، أما إذا ما تساوت القوة الممارسة على العضلة مع مقاومتها فإن عضلي لا تنقبض، بل يزداد توترها، وهذا ما يسمى بـ"متساوي القياس" (Isometric)، أما مقدار القوة الناجمة عن التقلص فمرهون بطول عضلي ومقدار نبضاتها الكهربائية. ولكي تصدر الحركة التي تسمى الانقباض يتحتم مرور النبضة الكهربائية الصادر عن ليفة الأعصاب الحركية إلى المنطقة الواقعة بين غشاء خليتي العضلية وبين غشاء خليتي العصبية. ونتيجة لرد الفعل الكيميائي الذي يحدث مع هذه النبضة الكهربائية، يتم خلال فترة قصيرة انزلاق خيوط الأكتين على خيوط الميوسين داخل ليفتي العضلية، وبهذا يقصر طول ليفتي العضلية. وخلال مرحلة رد الفعل يصدر بعض الشيء من الحرارة، كما أن هذه الحرارة الصادرة عن عضلاتي هي التي تحدد درجة الحرارة الطبيعية لجسمك. ولذا فإن عضلاتي عندما ترتجف في الهواء البارد تقوم بإنتاج حرارة أكثر لتحافظ على حرارة جسمك. ليس هذا برهان واضح في أن الله حكيم فيما خلق؟ فعضلاتي كما أنها تمكنك من التحرك، فكذلك تميك من البرد وتوفر لك الدفء بجرعاتها. ولعلك أدركت الآن لماذا

يتحرك الإنسان في الهواء البارد ويقي نفسه من التجمد. إن الحركات الانقباضية التي تنتج عن النبضات الكهربائية التي ترد بشكل متوال من ليفة عصبية إلى ليفة عضلية، تسبب بعد فترة الإرهاق لليفة العضلية وتجعلها بحاجة إلى الاستراحة، عندها تبدأ ألياف عضلية أخرى لم تنقبض بعد بالعمل وتنفذ تلك المهام. أما إذا ظلت النبضات الكهربائية تتوالى بشكل مكثف على أليافي العضلية ولم تترك لها فرصة الاستراحة، فعندئذ تصاب بحالة من الانقباض المستمر، وهو ما يطلق عليه "التشنج العضلي". من أجل الحصول على حركات منسجمة متناسقة؛ بدءاً من المشي إلى الجري، ومن الوثوب إلى القعود.. فإن عضلاتي التي تحمل مستقبلات للتوتر، ترسل كل لحظة عبر الجهاز العصبي بيانات عن حالة العضلة وسرعة ودرجة انقباضها، فيتم بذلك مراقبة حركات عضلاتي وتنظيمها عن قرب. ومن ثم فلا ترتجف أنت عند السير ولا ترتجف يداك عند تناولك الطعام. وكما أن كل جهاز من أجهزة الجسم وكل نسيج فيه قد يصاب بأمراض معينة، فإنني أيضا أصاب بأمراض خاصة بي. وأكثرها الضعف، واضطراب الهيمية، والألم، والتشنجات العضلية اللاإرادية، والالتهابات العضلية، وضمور العضلات أو تيبسها، والأورام العضلية الحميدة والخبيثة. عزيزي عبد الله.. لعلك أدركت الآن قدرة الصانع عَلَّمَ وحكمته في كل عضلة من عضلاتي، الصانع الذي حرك أعضاء جسمك، وكسا عظامك، وأقام عودك. فمن المستحيل أن تكون ليفة واحدة من أليافي العضلية قد تكونت من تلقاء نفسها. هذا وقد أستغرب كثيرا من الذين يزعمون أن الخلايا العضلية والأجهزة الحركية لدى الكائنات كلها، قد خلقت صدفة أو أنها من نتاج الطبيعة. عزيزي عبد الله.. لعلك أصبحت أنت أيضا تسخر من تلك القوانين البيولوجية المشوهة المنحرفة التي تنسب المخلوقات إلى الطبيعة. ■

(٤) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: د. طارق عبد الجليل.

# حتى يتبين لهم أنه الحق

أ.د. عماد الدين خليل \* ❁

على مدى أشهر معدودات يشهد العالم وقائع ومعطيات تفصح بلسان الحال والمقال معا عن إعجاز كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمصادقية المطلقة لتعاليمه وتحذيراته.

ع

## عشرات الكتب ومئات البحوث

قبل ذلك وعلى مدى القرنين الأخيرين تحديداً، جاءت الكشوف العلمية وبخاصة في مجالات التاريخ والخليقة والفيزياء والجيولوجي والكوزمولوجي والبيولوجي والجغرافيا والتشريح وعلم الأجنّة، لكي تتطابق بشكل يثير الدهشة مع آيات الله البيّنات.

وكلنا نذكر عشرات الكتب، ومئات البحوث التي تحدّثت عن ذلك، ونذكر معها المؤسسات والدوائر التي تمحّضت لمتابعة قضية العلم والإيمان أو القرآن والعلم الحديث، والتي قدّمت منظومة من الكشوف العلمية والمعرفية المتوافقة مع ما سبق وأن أشار إليه كتاب الله ﷻ. وكلنا نذكر -مع هذا وذاك- الجهد الكبير الذي بذله العالم الفرنسي المشهور "موريس بوكاي" في كتابه القيّم "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، والذي

يشهد العالم اليوم جملة من الوقائع والمعطيات، تقدم إضافات ذات قيمة بالغة لظاهرة الصدق المطلق لآيات الله البيّنات، وتطابقها المدهش مع الكشوف والخبرات المتجددة في واقع الحياة البشرية على امتدادها في العالم كلّ..



المناسبة لتجاوزه واستنصاله من حياة الناس:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۗ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٥-٢٧٦)، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل عمران: ١٣٠)، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ١٦١)، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩).  
وأن تذكر معها ما قاله المفسرون في الموضوع - وهو كثير

غزير - نكتفي منه بإشارة واحدة قد تغني عن التفاصيل: "لم يبلغ من تفضيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفضيع الربا. ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا.. والله الحكمة البالغة. فلقد كانت للربا في الجاهلية مفسده وشروره. ولكن الجوانب الشائعة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم، وتكشفت في عالمنا الحاضر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى. ويدرك - من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام - اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة. وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا. والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها. وتتلقى - حقا - حربا من الله تصب عليها النعمة والعذاب، أفرادا وجماعات، وأما وشعوبات وهي لا تعتبر ولا تفتيق!"<sup>(١)</sup>

وماذا عن الخنزير!؟

ثانيا: يكفي أن تذكر تحذيرات القرآن الكريم من الخنزير

خلص فيه - بعد عشرين عاما من البحث المكافح - إلى أن تسعة أعشار ما ورد من معطيات معرفية في التوراة والإنجيل، تسقط إذا أحلناها على الكشوف المعرفية الحديثة، ولا يمر سوى العشر. وفي المقابل فإن عشرة أعشار ما ورد في القرآن الكريم يتوافق مع هذه الكشوف. ويقول الرجل معقبا: "لا يمكن لـ"محمد" على افتراض تأليفه للقرآن أن يتعامل مع معطيات التوراة والإنجيل في ضوء معرفة لن تتشكل إلا بعد أربعة عشر قرنا، فيسقط منهما ما لا يتوافق والحقائق العلمية، ولا يستبقي سوى العشر، أيضا في ضوء معرفة ستتشكل بعده بزمن بعيد.. لا يمكن لرجل كهذا إلا أن يكون نبيا يتلقى عن مصدر علوي مطلق هو الله سبحانه".

### التطابق المدهش

الآن، وعلى مدى أشهر معدودات، وعبر ما تتناقله الفضائيات صباح مساء، يشهد العالم جملة من الوقائع والمعطيات، تقدم إضافات ذات قيمة بالغة لظاهرة الصدق المطلق لآيات الله البيّنات، وتطابقها المدهش مع الكشوف والخبرات المتجددة في واقع الحياة البشرية على امتدادها في العالم كله:  
أولاً: انهيار النظام الربوي، ومعاناة الرأسمالية من الاحتناقات، ووصولها إلى طرق مسدودة.

ثانياً: الغزو الشامل لأنفلونزا الخنازير، والإعلان عنها وباءً عالمياً.

ثالثاً: الحملة الشاملة التي أعلنتها رئاسة الجمهورية الفرنسية، لتضييق الخناق على ظاهرة شرب الخمر باعتبارها واحدة من أكثر العوامل المؤدية إلى السرطان.

رابعاً: تحليل طبي يجريه عدد من كبار الأطباء، يؤكد أن الختان يمثل واحدة من أكثر وسائل المناعة فاعلية ضد سرطان البروستات.

لا أحد يجادل في هذا الذي يشهده العالم الآن، بعد إذ أصبح، بمعطياته وذبوله المتجددة واقعاً ثقيلاً يفرض نفسه على الإعلام، ويشهده مئات الملايين من الناس على مدى العالم كله. ما الذي سبق وأن قاله كتاب الله في الظواهر الأربع!؟

أولاً: يكفي أن تذكر الآيات البيّنات التي أعلنت الحرب على الربا، وحذرت من تعاطيه، وقدمت البدائل الاقتصادية

تجنبنا للأنفلونزا التي يحملونها، والتي أعلن عنها وباءً عالمياً!..  
ثالثاً: ويكفي أن نتذكر - كذلك - تحجيم القرآن لظاهرة

شرب الخمر ثم تحريمها بشكل قاطع:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ  
لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣)،  
﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ  
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ  
بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (المائدة: ٩١-٩٠).

إن مفاصلها - إذن - كثيرة متشعبة لا يتسع مقال كهذا  
للخوض في تفاصيلها، ويكفي أنها رجس من عمل الشيطان،  
لكي يتجنبها الإنسان بفطرته السليمة.. ثم ها هي إحدى  
الكشوف الحديثة تشير إلى أنها أحد الأسباب المؤكدة لواحد  
من أكثر الأمراض خطورة وفتكا: السرطان.

رابعاً: أما الختان الذي بقي هو الآخر من أحد أممات  
السرطان، فأمره مؤكد في سنة رسول الله ﷺ وتقاليد المسلمين  
على مدار الأماكن والأزمان.

### وهي ليست خاتمة المطاف

هذه الوقائع الأربع التي ألمح إليها هذا المقال ليست خاتمة المطاف  
ولا نهاية التاريخ.. فعبر القرون الأربعة عشر تكشفت بقوة

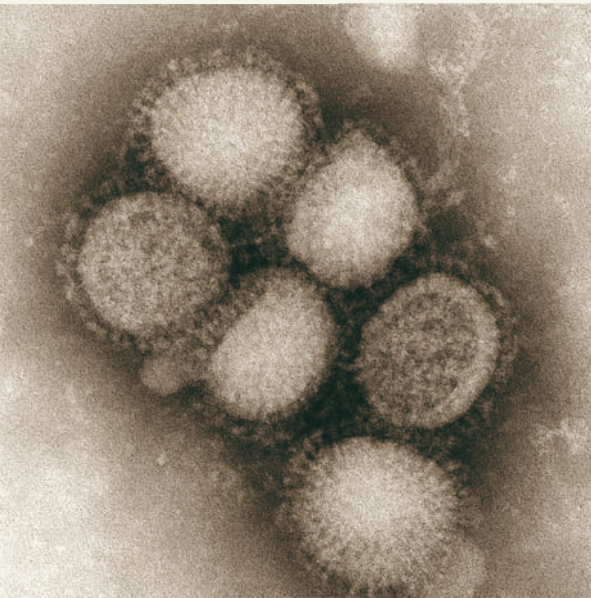


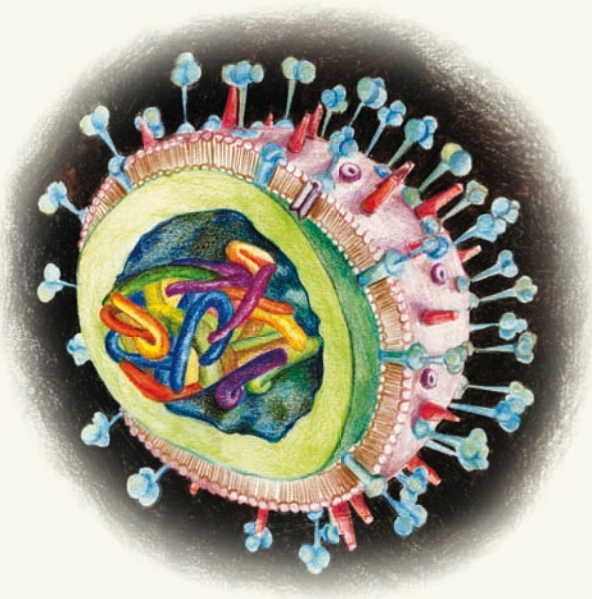
وأكل لحمه:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ  
بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٣)، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ  
الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة: ٣)، ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ  
دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خْتَرِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

"والميتة تأبها النفس السليمة وكذلك الدم. فضلاً على ما  
أثبتته الطب - بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن  
الله - من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة وفي الدم..  
فأما الخنزير فيجدال فيه الآن قوم. والخنزير بذاته منفر  
للطبع النظيف القويم. ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد  
الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه  
دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة).  
ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم  
تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر، لأن إبادة مضمونة  
بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة. وينسى هؤلاء  
الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة.  
فمن الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم  
يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم  
البشري بعشرات القرون أن نتق بها وندع كلمة الفصل لها، ونحرّم  
ما حرمت ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير؟" (٢)

وها هو العالم يشهد اليوم إعدام مئات الآلاف من الخنازير





الفكر البشري والبحث العلمي ومعطيات الواقع، عشرات الحقائق ومئاتها في شتى مفاصل الكون والعالم والطبيعة والنفس الإنسانية والجسد البشري.. وقرون أخرى ستمضي لكي تتكشف حقائق أخرى.. وهي في الحالتين تجيء مطابقة لما سبق وأن أشار القرآن إليه وأكد عليه.

فقبالة الآية المدهشة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (يونس: ٣٩). والآية المعجزة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣)، يقف المرء خاشعاً أمام الجلال الإلهي الذي يهيمن على الكون والحياة، ويحكي عن تكوينهما وصورتهما ومصائرهما، فإذا بهذا الذي يقوله كتاب الله يتوافق بشكل مدهش مع معطيات العقل البشري وكشوف العلم الحديث وخبرات الواقع المشهود.

ولكنهما وجداً في نهاية المطاف أن النسبة تضاعفت وفق أرقام فلكية، وأصبحت واحداً أمامه عشرة أمامها أربعين ألف صفر.. أي إن التخلُّق بدون إرادة فوقية مستحيل.. مستحيل.. فما كان منهما إلا أن يجتتما بحثهما بفصل يحمل عنوان الله (God).

### وما هي إلا علامات على الطريق

والحديث يطول، ومكتبة العلم والإيمان تتلقى يوماً بعد يوم سيلاً من البحوث والدراسات والمؤلفات، بعضها يؤكد بعشرات الشواهد العلمية إبداعية الله سبحانه في الخلق، فيما تحض له القرآن مساحات واسعة..

بعضها الآخر يؤكد وحدة الصنع فوحداية الصانع، فيما أشار إليه القرآن في عشرات المقاطع والآيات..

فئة ثالثة تحكي عن ذلك التطابق المدهش بين ما سبق وأن نصّ عليه القرآن، وبين الكشوف العلمية في أكثر معطياتها حداثة.

إن تحذير القرآن الكريم من الربا والخمر وأكل لحم الخنزير، وتأكيد السنة النبوية على الختان.. إن هي إلا مجرد شواهد وعلامات على الطريق.. وهناك غيرها العشرات والمئات.. ■

(٥) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، الطبعة السابعة والثلاثون، دار الشروق، القاهرة-١٩٧٣م،

جزء ٣، ص: ٣١٨.

(٢) المصدر نفسه، جزء ٣، ص: ١٥٦.

### محاولات خاتبة وأخرى مضادة

ومن عجب أن محاولات موصولة بذلت في الاتجاه المعاكس الذي يستهدف إلغاء الحضور الإلهي في الكون والحياة ونفيه.. فماذا كانت النتيجة؟

خمسون عاماً من الجهد اللافت في المعاهد والمختبرات العلمية السوفياتية لتمكين الإنسان من بعث الحياة في المادة العضوية (الطين اللازب)، خرج علماء الحياة بعدها وهم ينفضون أيديهم ويعلون عن فشلهم الحاسم.

ومن قبلهم كان "ماركس" و"انغلز" قد صاغوا في "المادية الديالكتيكية" نظرية المتغيرات الكمية التي تتحول إلى متغيرات نوعية بعيداً عن تدخل قوة أو إرادة فوقية، والتي جاءت المعطيات العلمية الأكثر حداثة لكي تبين تماثلها وعجزها، و"سخفها الطائش" إذا استعملنا عبارة سوليفان في "حدود العالم".

وفي المقابل يقوم البروفيسور البريطاني "هويل" بمشاركة بروفيسور هندي في جامعة كارديف في إنكلترا، بمحاولة استغرقت عشرين عاماً لفحص إمكان تخلُّق الحياة في موات الوحل (Primeval Soup) فيما أسماه محاولة التخلُّق في الفراغ (Evolution from Space)، وقالاً بأمرها بدأ المحاولة بعقلية الحادية صرفة، وأن الفكرة السائدة يومها هي أن تحقيق التخلُّق المذكور هو بنسبة واحد إلى عشرة في أفضل الاحتمالات.

عالم المحبة لا يبنيه إلا أولئك المحبون الصادقون ذوو القلوب العامرة  
بالإخلاص، والنظرات المشعة بمشاعر الإنسانية، الذين يرون في كل حي  
وجامد رسائل محبة وإشراقات وُدّ وعطف يملأ العالم كله..

\*\*\*

## الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف



د. سمير بودينار \* ❖

الحوار أو تتضاءل فرصه حتى تكاد تنعدم.  
ولأجل ذلك كانت أهمية النظر العميق في قضية الحوار، ليس  
بوصفه ضرورة واقعية فحسب، بل باعتباره خياراً إنسانياً ممتداً في  
الزمان والمكان، وطريقاً غايتها الصحيحة إبراز الهوية المتفردة لكل  
جماعة بشرية ضمن الأسرة الإنسانية، لا طمس تلك الهويات  
بالتأحيد؛ ما يوصل في النهاية إلى الإعلاء من إنسانية الإنسان  
ككائن مسؤول ومكرم، يواجه تحديات وجودية مشتركة لا

لا تنفك قضية الحوار الحضاري تلح في حضورها  
على راهن الجماعة الإنسانية، عاكسة باستمرار  
مستوى تدبير العلاقة بين أفرادها، والقدرة على  
حل الإشكالات التي تعترض مسارها، سواء في الصورة المثلى  
حين يتحقق الرقي. بمستوى تدبير تلك العلاقة، أو في صورة شائنة  
حين تنفجر أوجه الصراع بين الجماعات المختلفة، عبر عناوين  
سياسية أو اقتصادية أو عرقية أو طائفية أو مذهبية، فتتساقط قنوات

٤٦





التعدد المغني في الخبرات الحضارية للأمم، ومحصلته أن الحضارة الإنسانية تعني بكافة التجارب -صينية ورومية- ويرقى المنجز الحضاري بالتفاعل بين تلك التجارب (عبّرت القصة عن هذا التفاعل بانعكاس الصورة في عمل الآخر واكتمال جمالياتها به وفيه)، وبالتالي بلوغ الهوية مستواها الأرقى في مقام التواصل مع الآخر وتجلي منجزها الحضاري بالتفاعل البناء معه.

إن الحدود الحقيقية للهوية لا تتجلى إلا بالتواصل الإيجابي مع غيرها، ولا تظهر ميزاتها بالنسبة لذلك الغير، ولا قيمتها في ميزان الحضارة ومقدرتها على إثرائها إلا بسلوك الإنسان -كيفما كانت هويته الجماعية وانتماؤه المجتمعي وتجربة أمته- مسلك التواصل الذي يؤدي، ما إن تنضح ظروفه الفكرية والنفسية إلى التحوار، ولعل الفيلسوف المسلم الكبير طه عبد الرحمن كان بليغا في التعبير عن هذه الحالة التواصلية وأهميتها بالنسبة للإنسان، هويته ومستقبله حين اعتبر أن "الهوية فرع عن الأصل الذي هو الغيرية". تتجلى أهمية الدفع باتجاه مستوى الحالة الحوارية من مسار الإنسان، في أنها الحالة التي تضمن تأسيسا واعيا لتواصل بناء بين مختلف تجارب الحضارة، ما يتيح لها فرصا للرقى. غير أن التواصل فضلاً عن ذلك يمس جانبا آخر لا يقل أهمية من جوانب حياة الإنسان وفرص عيشه المستقبلية، وهو بلوغه منزلة التعاون. وهذه درجة من حسن تدبير العلاقة بين أطراف الجماعة الإنسانية لا تُبلغ إلا بمستوى من الوعي يستوعب التعدد كحالة طبيعية وسنة كونية، ويؤسس على هذا الوعي استثمارا لفضائل ذلك التعدد، وأهمها التفاوت بالضرورة في مستويات الاستفادة من إمكانات الوجود، وتفاعل الملكات الإنسانية معها إصلاحا وابتكارا وإعمارا وإزهارا.. وهو ما يؤدي إلى الحاجة المتبادلة بين مختلف المجتمعات والأمم تبعا لذلك التفاوت بينها كل في مجال، وضرورة التعاون بينها لإفادة كل منها من التجارب الرائدة والخبرات السابقة لغيره من الأمم.

وعند هذا المستوى، لا شك أن أفقا جديدا للحوار يتجلى. وهو هنا غير الحوار بوصفه تناظرا استدلاليا شرطه الارتكاز على المثال الأعلى، بل الحوار بين فهم متباينة وتطبيقات متنوعة تتحوار بعضها بعضا من خلال قدرة الجماعة على التعاون بالاستفادة من فهم غيرها وتطبيقه لمنظومة أفكاره، وبالتالي اقتباس كل تجربة خاصة من غيرها أفضل ما عنده أو أنسبه لها.

وإذا كان الحوار سبب التعاون، فإن التعاون بدوره هو طريق

فرصة للتعامل معها إلا بالتواصل والتحوار بين التجارب المتعددة للحضارة الإنسانية. وهو حوار يفرض بدوره إلى التعاون الذي يبلغ بالإنسان مرتبة "التعارف"؛ ذروة الخيرية في صلته بأخيه الإنسان. الحوار انعكاس للتجارب الحضارية المتعددة وطريق التعارف، ولعل واحد من أكثر الأسئلة التي تلح على راهن الإنسان وحضارته، هو ذلك المتصل بإمكان تحقق التعارف بين التجارب الإنسانية المتعددة لتلك الحضارة، والطريق المؤدية إلى ذلك التعارف، والقيم الباعثة على سلوك هذا الطريق.

وفي نص يفيض بالأدب والحكمة من التراث الإسلامي ترد قصة بليغة تعكس مقدار ما يعود به التواصل بين تجارب الشعوب والأمم، من فائدة على مجموع المتواصلين، يرويها الشاعر الكبير "جلال الدين الرومي" (٦٠٤هـ/١٢٠٧م - ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) في ديوانه الشهير "المنثوي". وهي قصة تنافس أهل الروم وأهل الصين في علم التصوير التي تروي "أن الصينيين قالوا: نحن أكثر مهارة في النقش، وقال أهل الروم: بل نحن أصحاب الكر والفر فيه، وقال السلطان: وأنا أريد امتحانا في هذا الموضوع لترى من المبرز منكم في دعواه؟".

وعندما حضر نقاشو الصين والروم، كان الروم أكثر ووقفا على هذا العلم.

وقال نقاشو الصين: ليخصص لنا منزل ولكم منزل، وكان المنزلان متواجهين، أخذ أحدهما نقاشو الروم، وأخذ الآخر نقاشو الصين.

وطلب نقاشو الصين مائة لون من الملك ففتح خزائنه.. وكان لنقاشي الصين كل يوم من خزانة الألوان جعل معين.

وقال نقاشو الروم: لا نقش ولا لون جدير بهذا العمل، اللهم إلا صقل الصدا. وأغلقوا الباب وظلوا يصقلون، وصار (ما صقلوه) كالسما بسيطا صافيا... وعندما فرغ نقاشو الصين من العمل، أخذوا يدقون الطبول فرحا. ودخل الملك فرأى صورا في ذلك المكان، كانت تسلب العقول والألباب. ثم انتقل صوب نقاشي الروم، فكشفوا ستارة كانت موضوعة أمامه، فانعكست تلك الصور وتلك الأعمال على تلك الجدران الصافية. وكل ما رآه هناك، انعكس هنا أفضل، فكانت تحطف العيون من محاجرها".

إن هذا النص على قصره يعطينا عددا من الدروس في إدارة العلاقة بين التجارب الحضارية المتعددة، فضلا عن الحكمة من



# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية  
www.hiramagazine.com

التعارف، وهو منزلة لا تضاهيها في سلم التواصل بين الإنسان منزلة أخرى، إذ أن التعاون نفسه يمكن أن يساء استخدامه، إما بالتعاون على غير ما يحقق للإنسان الخير والسلم من قيم، أو بالتواطؤ على غير ما يحقق العدالة من مواقف وأحكام. ولذلك جاء تخصيص مجال التعاون بين الناس في القرآن الكريم على البر والتقوى، أي على الأخلاق الإنسانية السامية وقيم الإحسان ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، كما ورد التحذير من التعاون على ما يناقض تلك القيم، أو يؤدي إلى احتلال موازين العدالة بالظلم والاعتداء: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

أما التعارف فهو الغاية من التعدد في الجماعات البشرية التي أوجد الله عليها العالم. ليس فحسب لأن ذلك التعدد قانون كوني إنساني ينبغي تديبه، بل لأن التعارف منزلة إنسانية أخلاقية وحضارية راقية، يُحفز الإنسان على بلوغها، ذلك أنه عند هذا المستوى من الرشد في العلاقات بين المجتمعات تزول مخاطر التعاون، بل التواطؤ على الجور أو الحيف أو أنواع الرذائل. لأن المقام مقام تعارف أي اتفاق وتلاق وتواصل وتعاون على المعروف والعرف، وهي المبادئ والقواعد الجامعة لمعاني الخيرية والأخلاق الفردية والمجتمعية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

والخلاصة أن الإجابة على سؤال الهوية، بل التحقق الإنساني للهوية بكل ما يواجهه من تحديات مشتركة في عالم اليوم، لا طريق له إلا طريق الحوار الذي يؤسس التواصل الإنساني فيستحيل تعاوننا، ثم يرقى حينئذ إلى مستوى يحفظ للإنسان - كما لكل جماعة إنسانية - هويتها، في ظل سعي مشترك إلى تحقيق الإفادة المتبادلة مما عند الآخر، بل إلى إثراء تلك الهوية بالتحالف على المثل والقيم العليا، التي تنادي بها الفطرة السليمة للإنسان - مطلق الإنسان - وذلك هو مقام التعارف. ■

## البدر الحزين

أيها البدر الحزين!

دمعك في القلب دفين،

منذ سنين وسنين...

مترع الحزن،

شاحب اللون..!

متى يا ترى،

عن نفسك تجلو الأحزان،

وتفعمنا بالروح والريحان..؟

\*\*\*

(\*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

# المسرح

## بين الفنون الإسلامية

محمود محمد كحيله \*

المسرح أبو الفنون، لأنه من أقدمها ولأنه منبر غير تقليدي للتوجيه والإرشاد والتربية والتعليم والدعوة إلى قيم الحق والخير والجمال. وما النقوش والزخارف الرائعة الدقة والتشكيل التي لا يخلو منها بيت من بيوت الله - المساجد- إلا لون من أقدم ألوان الفنون. وهذه الفنون التشكيلية لا يخلو منها أيضا أي أثر من الآثار الإسلامية قصرًا كان أو درعا، سيفًا كان أو ثيابًا أو إناءً.. وهي بمثابة بصم خاص يميز الآثار الإسلامية عما سواها من آثار العصور الأخرى، لأن الفن له وظيفة أساسية في الحفاظ على الهوية. والمسرح الإسلامي بكل ما يشمل من الفنون يمكن ببعض الجهد توظيفه ليصبح درعا للإسلام في مواجهة الغزو الدرامي المدمر الذي يخرق البيوت والرؤوس. وإذا لم نفعل ذلك سنتتهي الألفية الثالثة التي نشهد بدايتها، كما انتهت السنوات الطويلة السابقة من عمر أمة الإسلام والمسلمين، دون استخدام لواحد من أهم المنابر الإنسانية.

لا شك أنه آن الأوان ليجد مصطلح المسرح الإسلامي موقعه وسط المعاجم والسجلات المسرحية والدرامية، بما لذلك من أهمية في الرد على المدعين بتشدد الإسلام وتعصب المسلمين. وهو الادعاء الذي لا أجد منطقًا أبسط في الرد عليه



## ٢- السنن والأحاديث النبوية

اشتهرت بعض الأحاديث بتحريم الفنون، ولكن جاء بالبحث القيم والمفصل الذي تفضل بنشره العالم الجليل "يوسف القرضاوي"، بعد عرضه على أهل العلم والفكر "الخلاصة أن النصوص التي استدلت بها القائلون بالتحريم، إما صحيح غير صريح أو صريح غير صحيح، ولم يسلم حديث واحد مرفوع إلى رسول الله ﷺ يصلح دليلاً للتحريم. وكل أحاديثهم ضعفتها جماعة من الظاهرية والمالكية والحنابلة والشافعية".<sup>(٢)</sup> ويقول الرسول الكريم ﷺ: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)" (رواه الحاكم). وهنا يتفق قول نبي الله ﷺ مع ما جاء بكتاب الله ﷻ.

## ٣- إجماع آراء العلماء والفقهاء

جاء بكتاب الأحكام للقاضي أبي بكر بن العربي: لم يصح التحريم في شيء، وقال ابن الطاهر في كتابه "السماع": لم يصح منها حرف واحد، وقال أبو الطالب المفضل بن سلمه اللغوي في كتابه "الملاهي والفنون": من عرفت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب ومن غلظ حسه كره الفن فتشاغل عنه وعابه وذمه".<sup>(٣)</sup> الأديب الإسلامي حجة الأدب العربي "مصطفى صادق الرافعي" الذي اشتهر بمحوصته الشديدة وتصديه العنيد لأي تجاوزات دينية أو أدبية عبّر عن إعجابه وترحيبه بالتجربة المسرحية بما كتبه عن مسرحية "محمد" لتوفيق الحكيم "وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي أن ابن هشام كان أول من هذب السيرة تمهيداً تاريخياً على نظم التاريخ، وأن توفيق الحكيم أول من هذبها تمهيداً فنياً على نسق الفن".<sup>(٤)</sup> وقد ثبت بعد ذلك أنه قام بتأليف نص مسرحي بعنوان "حسام الدين الأندلسي". بهذه الأدلة والبراهين نصبح على يقين أن "الإسلام يعانق الحضارة النافعة ويؤاخي المدنية الراشدة ويواكب التطور المفيد.. ولا شك أن المسرح من ثمرات الحضارة، أبدعها عقل الإنسان وأنتجها عباقرة البشر، فيقف الإسلام منه موقف الموجه الراشد والمصلح المتبصر الواعي، فيأمر القائمين عليه بنشر العلم وتثبيت العقيدة وتدعيم الأخلاق وتوجيه الأمة لما يصلحها في دنياها عن طريق هذه الوسيلة التي سخرها الله لتكون أداة نافعة للإنسان".<sup>(٥)</sup>

من ذكر حقيقة؛ أن القرآن الكريم الذي لم يترك كبيرة ولا صغيرة همّ المسلمين إلا أحصاها نزل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، أي بعد معرفة الإنسانية للمسرح الذي كان على أقل تقدير في القرن الرابع قبل الميلاد بألف عام على الأقل. وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة للفنون المسرحية وتعدد فوائدها، إلا أنها لم تجد من يدافع عنها أو يصبغ فاعليتها بالشرعية. العرب القدماء لم يعرفوا المسرح، لأنه اعتمد في بداياته على الشعر وكانوا أشعر الناس، لذلك لم يهتموا بترجمة المسرحيات الشعرية. ولما احترف العرب فنون الكتابة بما تحتاجه من قدرة على الإلقاء والخطابة، ابتكروا النقاوض وهي أشعار مرتجلة يبدأ فيها آخر الشعراء من حيث انتهى أولهم الذي يتفنن بالطبع في حبك قافية تعيق تقدم قرينه. وتعرف هذه الفترة من نهضة العرب بمرحلة موت المسرح، لأنه انعكاس للواقع. والواقع أن الغرب كان يمر بمرحلة من أكثر مراحل التخلف والظلام حيث كان مسرح الدنيا يستعد لاستقبال نور الإسلام.

تفوق العرب في فنون الكلام حتى إذا حسبوا ألا نظير لهم في استخدام اللغة العربية "صياغة وتلقياً" أدركتهم معجزة القرآن الكريم، وكان الخالق قد أسبغهم من بلاغة التلقي ما أهلهم لاستيعاب الإعجاز اللغوي لآيات القرآن، وتمتع من آمن منهم بترتيبه ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (الزلزل: ٤). ويقول المصطفى ﷺ: "ليس منا من لم يتغنّى بالقرآن" (رواه البخاري)، مما يدل على "أن الإسلام لا يناسب الفن أي نوع من العداء إذا كان ينبع من معنى طاهر حسبما يقره الإسلام عقيدة ومنهجاً، بل إن الدين والفن يلتقيان التقاء كاملاً في حس المسلم حتى يكون الفن قائماً على التصور الإيماني للوجود والمشاعر والأفكار والسلوك والوجدان، ويحقق مقاصد هذا التصور في الواقع الإنساني".<sup>(٦)</sup> وعلى من يدعي تحريم الفن أن يقدم أدلة من المصادر التالية:

## ١- القرآن الكريم

المصدر الأول للتشريع ولم يأت به تحريم للفنون كلها أو بعضها، ولما كان الأصل في الأشياء الإباحة، لذا فالأصح والواجب ألا ترسل أقوال تقضي بالتحريم لتكون في ذاتها خروجاً عما جاء بكتاب الله ﷻ والقائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩).



## والمسرح الإسلامي

إلى مختلف الأقطار العربية، فمثل في اليمن وفي الكويت وفي سوريا وفي العراق وفي الأردن وفي غير تلك البلاد.<sup>(٦)</sup>

ويعالج النص قصة مأثورة عن الإيثار وإنكار الذات والدعوة إلى فعل الخيرات، وأبطالها "عكرمة الفياض" و"خزيمة بن بشر". كما أنها تعكس سمو الخلق والمروءة والتبل وغيرها من القيم الجميلة التي أكتسبها العرب من الإسلام.

بكل ما يشمل من الفنون يمكن ببعض الجهد توظيفه ليصبح درعا للإسلام في مواجهة الغزو الدرامي المدمر الذي يخترق البيوت والروؤوس. وإذا لم نفعل ذلك ستنتهي الألفية الثالثة التي نشهد بدايتها، كما انتهت السنوات الطويلة السابقة من عمر أمة الإسلام والمسلمين، دون استخدام لواحد من أهم المنابر الإنسانية.

والنفس البشرية تحتاج إلى تهديب وترويح كما يحتاج الجسد إلى الطعام والشراب. وما كان الدين الإسلامي ليقى وينتشر ويستمر لو لم يف بكافة احتياجات الإنسان النفسية والجسدية قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢). والزينة بتعدد دلالاتها هي من أعمال الفن التي لم يحرمها الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩).

### رواد المسرح الإسلامي المعاصر

ستتعرف على أهم رواد المسرح الإسلامي المعاصر وأهم كتاباتهم المسرحية، لما لذلك من أهمية كبيرة في تحقيق عملية التأهيل والتواصل الفني والثقافي الهام، والواجب بين مختلف الأجيال الساعية إلى التقدم. —**محمود غنيم**: بالمسرحية المذكورة يقف حاملاً لواء الريادة للمسرحية الإسلامية المعاصرة التي كما لاحظنا أن بدايتها الأولى جاءت من خلال رجال تعليم للتأكيد على التماس الشديد بين المسرح الإسلامي وبين التعليم، لأن كلاهما وسيلة للتربية والتقويم والثقافة والتهديب والتعليم.

—**محمد محمود رضوان**: كان وقتها نقيباً للمعلمين في مصر، وكتب للمسرح الإسلامي تسعة نصوص هي: نور على الصحراء، طفولة محمد، شباب محمد، في سبيل الله، إسلام عمر، إلى يثرب، على ضفاف اليرموك، مروءة ووفاء، دموع الخنساء".

—**علي أحمد باكثير**: يميّ الجنسية مصريّ الهوية الثقافية. بدأ حياته الوظيفية في سلك التربية والتعليم مدرسا للغة العربية. وقد أثرى المسرح الإسلامي بالعديد من النصوص منها: هلك المتنطعون، الخاتم، حارس البستان، من فوق سبع سماوات، زوجتان صالحتان، الإمام الشجاع، الأسير الكريم، الملحمة العمرية.

—**محمد يوسف محجوب**: شاعر رقيق، كتب الكثير من النصوص المسرحية للمكتبة المدرسية أهمها: بلال، عمرو العجوز، غزوة بدر.

### تطور الدراما المسرحية الإسلامية

في زمن الخليفة المهدي كان "عبد الرحمن بن بشر" أحد الدعاة، يقوم بتجميع الناس على مشارف بغداد فوق ربوة وينادي: ما فعل النبيون؟ أليسوا في أعلى عليين؟ فيقول من حوله: نعم، ثم ينصب محاكمة للخلفاء ومن تلاهم من حكام الدولة الأموية ثم خلفاء الدولة العباسية، حيث يعترف كل منهم بما فعل من سيئات تسوقه إلى جهنم أو حسنات وطيبات ترفعه إلى مقام الجنة مع الخلفاء الراشدين. وقد ظهرت بالأمة الإسلامية عدد من الحالات الدرامية ثم اختفت تماما كل الأنشطة الدرامية أو شبه المسرحية من خارطة النشاط الثقافي للأمة الإسلامية التي شرعت في التفتت والانهيار، حتى نشطت المسرحية الإسلامية من جديد في إطار حديث تأثر بالتجربة العالمية في الشكل لا المضمون. وكانت العودة في مصر وتحديدًا في الفترة من عام (١٩٤٠-١٩٦١م). وقدم في هذه المدة القصيرة (٣٤) مسرحية وفقا للإحصائية الدقيقة التي ضمنها كتاب "المسرح الإسلامي". وهي تعتبر أول التجارب الحديثة في المسرح الإسلامي بزيادة مصر، لأنها كانت من أول الدول العربية حصولاً على الحرية. ومن الطريف أن يخرج أول نص مسرحي من عباءة المسرح المدرسي كإشارة للتماس الواضح بين الكيانين. وكان هذا النص بعنوان "المروءة المقنعة" تأليف الشاعر "محمود غنيم"، ونشر للمرة الأولى بصحيفة "دار العلوم" عام (١٩٤٠م)، ومنها انتقل إلى مختلف الهيئات، ثم



وكتب الطبيب والمفكر الإسلامي والعالم الجليل "مصطفى محمود" عددا من النصوص المسرحية الإسلامية منها: الزلزال، الإسكندر الأكبر، الشيطان يسكن بيتنا، الإنسان والظل، الجنة والنار. وشارك الإمام الصوفي "محمد ماضي أبو العزائم" بنص مسرحي واحد هو "محكمة الصلح الكبرى".

ومن المشاركات مسرحيات الشيخ "سلطان بن محمد القاسمي" حاكم إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة. لأنه أول قيادي عربي يساهم بفكره وإبداعه في إثراء المسرح بكل ما لذلك من دلالات إيجابية، وتم هذا بخمسة نصوص هي "عودة هولوكو"، ويتعلق بالهجمة التاريخية المغولية على العرب والمسلمين، ومسرحية "الواقع صورة طبق الأصل" عن المخطط الرامي لانتزاع القدس من المسلمين، و"القضية" التي تجري أحداثها في القرن الحادي عشر، وأقول شمس المسلمين عن الأندلس وخروجهم منها ثم كتب مؤخرا مسرحية "الإسكندر الأكبر" عرضت عام (٢٠٠٧م)، ومسرحية النمرود التي تعرض في عام (٢٠٠٨م)، وكلا العرضان يعكسان برغم الأطر التاريخية قضايا عصرية.<sup>(٨)</sup>

والعروض العربية أغلبها شبه إسلامية. لذلك يسهل أن تتحول إلى قاعدة أساسية لإحياء المسرحية الإسلامية؛ فتتحول الاجتهادات الآتية من حركات ثقافية إنسانية إلى أفعال دينية إسلامية يثاب المرء بفعلها لتكون دافعا لتقدم وانطلاق الأجيال الحالية والتالية، نحو ما يرحى لهذا الكيان الهام من قيمة وما ينشد له من مكانة. ■

(٨) كاتب وباحث مصري.

#### الهوامش

- (١) الغناء والموسيقى، لعمر عبد الكريم، دار القلم، الكويت ١٩٩٥م.
- (٢) الإسلام والفن، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ص: ٤٩.
- (٣) الملامهي وأسمائها، لأي طالب الفضل بن سلمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٨٥م، ص: ٤٥.
- (٤) وحى القلم، لمصطفى صادق الرافعي، الهيئة المصرية للكتاب، ص: ٣٧٣.
- (٥) حكم الإسلام في وسائل الإعلام، لعبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ص: ٩٢-٩٣.
- (٦) المسرح الإسلامي، لأحمد شوقي قاسم، دار الفكر العربي، ص: ١٥٠.
- (٧) الإسلام والفن، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر.
- (٨) ثلاث مسرحيات قصيرة، للدكتور سلطان بن محمد القاسمي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٠٣م.

يرى أصحاب الرأي أن المسرح الإسلامي يشكل جانبا له خطره في تنبيه المشاهدين إلى كثير مما يحاك ضد المسلمين. ولذلك تزيحه القوى السياسية من الساحة الثقافية والفنية، لأنه كان في الماضي يؤدي دورا، وله تأثير قوي في حث الأمة على مقاومة الاستعمار ومطاردة كل من يحاول أن ينال من دين الأمة وإسلامها. ولذلك يحرصون جميعا على ممارسته بتحفظات هي:

- ١- البعد عن تشخيص وتجسيد رسل الله وأنبيائه.
- ٢- تضمينه ما يبرز عظمة الإسلام وسيرة الفتوحات.
- ٣- يهتم بسرد حياة الفاتحين والتعريف بفضل الجهاد وأجر المجاهدين.
- ٤- تخلو أحداثه من الحز على الذنوب صغيرها وكبيرها.
- ٥- يهدف إلى إظهار حسن نتائج فعل الخير وفضل الاستقامة.
- ٦- لا تصاحب فاعليته مفسدة كالزنا وشرب الخمر أو إضاعة الصلاة.

عرفت تجربة المسرح الإسلامي العديد والعديد من الأسماء طوال فترة النشاط المذكورة، حتى حدثت الكبوة وحل الكساد وخبث جذوة المسرح وضمرت نشاطاته واختفت فاعليته لعدة عقود كما عرفنا، ثم عادت من جديد أكثر نضجا ولكن بتجارب قليلة ومتناثرة هنا وهناك في أنحاء العالم العربي، مثل النصوص الإسلامية القصيرة التي نشهد ببراعتها والتي يتضمنها كتاب "تربية الأولاد في الإسلام" لعبد الله ناصح علوان.

وشرف المسرح الملتزم المنضبط أخيرا باستضافة شخصيات هامة من رجال الفكر والعلماء والأطباء والفقهاء والشعراء والساسة والمفكرين الإسلاميين ممن احتذبتهم أضواء المسرح فكتبوا لها أعمالا محدودة، ولكنها مؤثرة على مستوى القيمة الفنية والثقافية والأدبية، لأنها فرضت نفسها على فكر ووجدان أصحابها، وبالتالي مساندتهم المعنوية وموافقتهم الضمنية وتأكيد إيمانهم بأهمية الفنون المسرحية. ومن هؤلاء: الفقيه الجليل دكتور "يوسف القرضاوي"، حيث كتب للمسرح عملين أحدهم مسرحية شعرية عن "يوسف الصديق" عليه السلام، والثاني مسرحية تاريخية عن "سعيد بن جببر والحجاج بن يوسف الثقفي" اسمها "عالم وطاقية".<sup>(٧)</sup>



# الأنصاري

روايته الأخيرة "عودة الفرسان"

نص المولد وخطاب الوداع

أ.د. سليمان عشراقي \*

فالمرء مع من يحبّ، والروح تتعشق أن تُنوّه بشمائلها الشخصية من خلال التنويه بأشخاصٍ من تتجسّد فيهم تلك الشمائل.

## الكتابة فعل احتسابي

وواضح أن الأنصاري أقبل على الكتابة وهو لا يعرف ما جنس النص الذي سيخوض في تحريره.. كل الذي يدريه أنه يُقدّم على الكتابة تحت باعثٍ قويٍّ، مكين: "ربما كان هذا النص الذي أقدمه اليوم للقراء رواية، أو سيرة، أو ربما كان قصيدة، أو كتاب تاريخ.. لست أدري!!"

ومن أول وهلة يكشف لنا الكاتب عن مكان ولادة هذا النص، ويبيّن المنازل التي شهدتها عملية نماء وتشكّل هذه الرواية، بل ونراه من خلال تقنية القطع والالتفات السرديين، يميّط اللثام عن الحال الدرامية التي تم فيها المخاض وتحقق الوضع: "إني شرعت في تدوين ملاحظته بمستشفى "سماء" في مدينة إسطنبول العامرة سنة ٢٠٠٨، ثم دوّنت بعضها بعد ذلك ببني في مدينة

حين يخوض الأنصاري في توثيق سيرة الداعية المصلح فتح الله كولن، تكون الكتابة بالنسبة إليه استشفاءً، وتجملاً، ومقاومة لكوايبس الداء العضال، واستجماعاً لكل ما في المعين من بذور وفسائل عاجلها الرجيل عن أن تفتتح وتزدهر وتستوي على سوقها. يمكن أن يقال عن هذه الرواية إنها النص الوداع، الرسالة الوصية، البيان الختامي، المتن الوديع، بل إنها صوت احتسابي صادر عن نفس تنحني في مقام الاستسلام، وتدعن للقدر برضى، كما يقتضي الإيمان من المسلم الحق.

إنه النص الجسر الواصل بين إسطنبول ومكناس، نص حوّليّ احتزل الأجندة، واختصر في فصوله أطوار حياة الأنصاري، من حيث شعر الأنصاري أو لم يشعر. كتابة هذا النص هي في الأساس تنقيب في مراحل سيرة الداعية فتح الله، لكنها غدت في استطرادات عدة من متنها كتابةً عن الذات، ولا غرو أن تتلابس الأشجان،

## التوحد

ثم لا نلبث أن نرى الكاتب يتوحد مع شخص كولن، أو هو بالأحرى يستشعر ما كان يقرب بينهما من قواسم، فكلاهما على وعي متفجر بمواقع الداء منه، وكلاهما قضى عليه القدر والألمعية أن تستغرقه رحلة البكاء. الداء يمتطي صهوت كولن فينوح، وداء آخر يسحق كينونة الأنصاري فلا يملك سوى أن يبكي هو أيضاً، وفي الحالين يلقى الأمل والعزيمة وحدهما مناط هبوب نسيمات الرجاء في استعادة السلامة والعافية والتجدد: "رجلٌ وحده يسمع أنين الأسوار القديمة، ونشيج الريح الراحل ما بين طنجة وحكارتا! وبكاء النورس عند شواطئ غادرتها سفن الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بعدُ شرعاً!.. فيبكي!" وتصرّ السردية على أن تعمق هذا الملمح الاحتراقي البارز في شخصية كولن، فتضيف: "رجلٌ وحده يسمع صهيل الخيل القادمة من خلف الشُّحْب، ونداء الغيب المحتجِب، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي من على منبره: ألا يا خيل الله اركبي!.. ويا سيوف البرق التَّهْبِي!.. ويرى ما ليس يُرى.. فيبكي!"

وتلنت السردية تارة أخرى إلى استقراء رمزية اسم "البطل" فتراها رمزية تحمل في دلالتها معاني البشري التي أناط القدر بالداعية الإمام مهمة زرع فسائلها وملء الحقول من حواليه بها: "فتح الله سيرة بكاء! لقبه الأسري: "كولن"، ومعناه "الضحك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضاً! فهو بكاء الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر ولها.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرت أثمارها من بين جفنيه!"

## كولن والنورسي

بل إن الرواية لتجعل من صفة البكاء التي يتميز بها كولن مجلّي مُشخصاً لمهمة

مكناس بالمغرب الأقصى، ثم قدّر لي أن أختتمها بعد سنة كاملة بمسشفى "سماء" مرة أخرى في مدينة إسطنبول!"

وبما أنه يكتب عن أحد أبرز أئمة الدعوة المميزين بالعبرية في العصر الراهن، فلا بد أن نراه يبادر إلى الكشف عن معاناة الموهوبين، إيعازاً بما يلقي هذا الإمام من أنواع المكابلات، وربما إيعازاً كذلك بما كان يستشعره هو أيضاً من دنوّ الأجل.. فالعبرية عطاء مُبكر في الحلول، مبكر في الأفول. يقول متحدثاً عن فتح الله: "أي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قبل أوانه، ويعاشر غير أهل زمانه؟"

لا ريب أن التواشج هنا قائم بين شخصية الكاتب وشخصية المكتوب عنه، ذلك أن الترابط بين الأنصاري وبين الداعية فتح الله كان معنوياً، قَرَبِيّاً، والتجاذب بينهما قام على أساس من انشداد الروح إلى الروح. كان الأنصاري المنحدر من أرض طفقت تصدر إلى الآفاق أعلاماً من رجال السلوك والتأسيس الطُّرُقِي، يبحث عن القطب الذي يتواثق معه على المرابطة، فاخترته رايات الطائفة النورية، فأناخ ناقته وأخذ مجلسه من الحلقة، وانخرط رأساً في استظهار الأذكار. لقد وجد في فتح الله إمامه، وتبين فيه وراثته السر والمفتاحية.

ومن الطبيعي أن يسلس للسارد القول وتخدم الشعرية من خلال ما يوفره له البعد المكاني الذي حلّ به، والذي تدور فيه وقائع الرواية (إسطنبول) من دواعي الإعراب. إنه فضاء حافل بالتداعيات التاريخية والرموزية.

ومنذ البدء تجرد النفس ذاتها مشتحنة بمشاعر اللوعة والجيشان، إذ هناك ما يبعث على مثل ذلك التهيح الوجداني الذي بدا وأنه - كأغوار البحر - يتلاطم من خلال مجاري العمق والتيارات الجوفية.. وهكذا تمياً للكاتب العليل أن يعيش ومنذ ساعة هبوطه إلى تلك البقاع، حالة متوترة من المواجهة مع التاريخ، ومن المكاشفة والإفصاح عن طاقم الفجائع الكبرى التي ما زالت أصدائها المشؤومة تدوي في روح الكاتب. وما أسرع ما نعرف أن كاهله ينوء بإرهاقات ثلاثة مزمنة تتوي في العمق، ثلاثة تصدعات لا تزال مفتوحة في جسد الذاكرة: هزيمة الأندلس، وضياع الخلافة، واعتقال الأقصى.

العلة الجسدية إذن تزيد أدواء الاعتلال المعنوي من التهاهما، وذلك ما يقام من وضع الكاتب.





الافتداء والعتاء التي نذر نفسه لها، حين اختار أن يسلك للحياة سبيل التنسك والانقطاع إلى الخدمة وبذل الصالحات. كولين مثل الأستاذ النورسي، ومثل قطاع متميز من أهل الله، عاشوا كينوتتهم في صيام وقيام، إذ قدروا أن لا وقت لديهم ينفقونه في غير ما يحقق معنى الكمال الإنساني الذي به تتحقق الاستخلافية، استخلافية الإنسان في الأرض. فالبكاء - حسب قول السارد - هو مجرد عنوان حالي لملاحم من جليل الرهانات التي اجتازها كولين عبر حياته ومنذ الميعة: "ولقد أخطأ من ظنه بيكي ضعفاً أو خوفاً! وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض؛ فبكي! الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته بيكي بمجالسه؛ فبكي لبكائه كل عصفير الدنيا! ولقد رأيت بيكي طفلاً وشاباً، ثم كهلاً وشيخاً! ولم يزل بيكي وبيكي.. وما جفّ لتدقق شلالاته نبع! بدموع مواعظه الحري سقى فتح الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابل بوارقها سقى كل صحارى العالم! ولقد عجبت من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟".

ومن البين أن الكاتب - وهو يستعرض ملامح المعاناة التي عليها فتح الله - كان يجد مجالاً لترجمة كثير مما بنفسه هو من دعر واندحار ومصابرة.. فالبطولة السردية في مطلع الرواية تنحو منحى تشاركياً، بحيث نحس أن شخصية الأنصاري وشخصية الإمام فتح الله تتقاسمان أو تبادلان دور الحضور بصورة طبيعية، وذلك بحكم ما يقوم في روح الأنصاري من إكبار ومحبة لشخص الإمام، جعله يقرأ مساحة من همومه هو في خريطة هموم وأرزاء الإمام. فحس البيعة والتبعية جلّي في الخطاب، إذ العلاقة التي تربطه بفتح الله هي علاقة المريد بشيخه، والجندي بقائده، والابن بأبيه.

هنا يقع نوع من التطابق بين وضع السارد ووضع المسرود له، من حيث وحدة وطبيعة المقاومة التي يقتضيها مطمح الانتصار في المعركة الحسية والمعنوية، على الرغم من انبثاق إشارات متواترة تكشف أن أولوية الحسم بالنسبة للأنصاري في تلك المعركة، إنما هي الصمود والتغلب على العلة الجسدية، إذ كانت هي "النازلة" التي تقف حاجزاً أمام ما كان يأمل أن يكون له من بلاء.

ويقع التطابق المسلكي بينهما كذلك، اعتباراً لما كان يرشح له الأنصاري نفسه في المحنة التي يمر بها، من حيث وجوب السير على خطى شيخه، فيمضي على نهج من التماسك، والتجرد، والتعالي عن الوهن، والتواري عن الأضواء؛ فالافتداء بأهل الريادة والنموذجية يعني أن نتعلم كيف تتلقى السهام بسنّ ضاحك، ووجه طلق، وملامح تخفي طعاناتها وراء خطوط من الاستبشار.

### في إسطنبول

أبحر الأنصاري إلى إسطنبول على أمل الشفاء، وحل بتلك الحاضرة ذات الماضي المجيد، وألقى بنفسه على ذات الموج الذي عبر فوقه سائر الفاتحين: "هنا إسطنبول.. هنا معبر الفاتحين إلى كل أدغال العالم!.. ما إن دخلتُ بين مآذنها حتى

يمكن أن يقال عن هذه الرواية إنها  
النص الوداع، الرسالة الوصية،  
البيان الختامي، المتن الوديع، بل  
إنها صوت احتسابي صادر عن  
نفس تنحني في مقام الاستسلام،  
وتدعن للقدر برضى، كما  
يقتضي الإيمان من المسلم الحق.



## سماء الأمل

إنه يعيش مفصلاً دقيقاً، بل متصدعاً من عمره، لا تفتأ النفس تبحث فيه عن مسرب للانفلات من تحت الأنقاض، وإن وَقَعَ ذلك الوضع المتأزم ليرتد دويه العنيف في أوصال الخطاب: "لِزَمَانَ التَّحولاتِ وَقَع الزلازلِ على المنازلِ!"

النفس تظللها آناات من الأمل وأخرى من اليأس، وتلك هي حال من تكون إصابته ضاربة في الأغوار، فحيال جثوم الحسرة على القلب، لا يسع الخطاب إلا أن يراوح بين محطتي الأمل واليأس، إذ لا تملك النفس إلا أن تلازم تلك الكوة الصغيرة المطلة على سماء الأمل تتطلع منها، لكن مسلسل الاهیارات يستمر دويّه، ويستمر شريط الصور القائمة يلف الحس بجبل الكتابة، يلتمع حيناً، ويرتد إلى دكته حيناً آخر، فيطول العناء، ويتزايد حجم التمزقات: "كانت الأرض تدور بمنزلة ذات طبيعة أخرى، تتداخل فيها الشعاعات بين غروب وشروق!"

واضح أن سياقات المدخل لبثت تومض باللون الأحمر، لون الخطر، معلنة عن تكرار الأفق بيوادر حُدادية، بحيث إن مفردات الخطاب ذاتها تعكس شيئاً من برودة المدافن، وارتجاف القلوب المقهورة: "وكانت الريح تقصف ببرد قارس! وأسراب الحمام والنورس تطير هاربة، لتحتمي من صقيعها تحت أضلاع المآذن والقباب!". إن الحماية هنا مطلب ملح، يَخُصُّ الأنصاري، وإن مناط هذه الحماية بالنسبة إليه هو الاعتصام بالمآذن والقباب. خطاب الرواية في هذا الشطر من التوطئة يفصح عن كثير من المضمرات الروحية، ربما غير المدركة حتى من قبل الكاتب نفسه، والتي تعبر عن تعمق حس الاستشفاع لديه.

إن مطلب الاحتماء يظهر ملموساً في ثنايا الخطاب، ومن خلال إيعازات واضحة. ولقد طفقت الأدبية وهي تسرد موضوعها، تلون المساقات بلون النفس وغبش جوها الصقيعي. هناك إفراغ وجداني تهباً للأنصاري في مدخل الرواية، فاسترسل يغترف من عدة شاعريته، ويصوغ ألقاناً فيها نبرة حزن معلنة. بل إن العبارات أحياناً لتعكس في حدتها وحنانيتها صورة الانتكاس، والانقباض، والانطواء على الذات، والانتظار المؤذي، والتطلع إلى اليد التي تمسح على الجسد بأنامل بلسمية تزرع العافية.. هذه هي نوعية الأصداء التي تنتهي إلى حس القارئ وهو يتابع مطلع الرواية.

انتشى قلبي أملاً! لكنني لَمَّا اقتربت من جِسْرِ البُوسفورِ مَسَّنِي فَرَعٌ!.. كانت النوارس تضج في الفضاء بشكل مثير على غير عادتها..! فَلَـمَ أَدْرُ أَعْرُسُ هو أم محض عويل؟.. ومن يدري؟.. أجل وأنه لحق قول الله عز وجل ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤).

تُرى هل أحس الأنصاري وهو يعبر الجسر، بالنذر ترشفة بسهامها الرعناء؟ هل دَرَى -هو الباحث عن الأسرار- أن رحلته إلى عالم الآخرة ستكون من صدد ذلك الأفق الذي حل به، في مشفى السماء حيال البحر، وأن الجزر الخمس زينة ذلك العرض الفردوسي، ستكون هي المحطة النهائية التي سينتهي عندها نظره في سعي منه أن يخترق الحجب صوب الأندلس الفقيده، وصوب المغرب البعيد، حيث الأحبة، وحيث يمتد الجناح الآخر من الوطن الملى.. مهيض الجناح هو بعرض البحر، لا يقدر على حراك، ولا يتأهل لتحد.

مشهد الجسر الرابط بين آسيا وأوروبا، والذي عبره الأنصاري وهو ينزل بلاد النور، كانت دلالته حادة في شعوره، وعنواناً على قرب الاجتياز، وشارة منذرة بقرب انتهاء الرحلة وطي الكتاب. ويحاول الأنصاري أن يستمد السلوى في ليل الوحشة والبعث عن الأهل من هبوب نسيمات الحلم.. فالحلم هو حقيبة البشائر التي يلقي بها أمامنا الأمل حين يلفنا الموت الأصغر، وهكذا رأى الأنصاري نفسه يطعم عسلاً، ورأى أسراب النحل تعتصر الرحيق من مآقي شيوخه الإمام.. وواضح أن الدلالة الاقتضائية تؤمى هنا إلى ما كان يتبرعم في روح الأنصاري من أمل بنيل الحاجة، والأوبة إلى وطنه محملاً بالمغامم.

بل إن للنحل والعسل -هنا- دلالة منطوية بمطمح الشفاء الحقيقي والمجازي الذي ينشده الأنصاري بلسان مرضه الحسى، ومرض الأمة المعنوي.

من جهة أخرى نراه يستتردد للحالة التي تطبق عليه بعنانتها بيتاً للمعري:

أَبَكَّتْ تَلْكُمُ الحَمَامَةُ أَمَ عَدَّ \* \* \* نُنْتُ عَلَى فَرَعِ عُصْنِهَا المَيَّادِ:؟

فالشعر في حال انهيار المعنويات، له دور السند على كل حال، وواضح أن الأنصاري، ومن خلال تسويق هذا الشاهد الشعري، يرسم صورة للوجود، ليس كروية شك وحيرة وعدم إذعان، وإنما كحسرة على الأفعال العاجل وحرقة على المغادرة المبكرة.

## ألم الميلاد

ولأن الأنصاري روحاني بجِبِلَّتِهِ وعميق إيمانه، متمرس بتلقي الإشارات وعقد نيات الاستخارة، فقد أمكنه - كما تخبر الرواية - أن يقرأ في ما تلقاه من واردات أن النورسي يحيله إلى صاحب الزمان الذي سيتمكن من أن يجد لديه حاجته ويحصل بغيته: "أما علمت أن لكل زمان صاحبه؟".

ولا يسع الأنصاري إلا أن يستوثق ليعرف من هو "صاحب الزمان"، فيأتي رد النورسي مفصل الإشارات والدلالات، إذ قال: "ويحك يا صاح! أما صاحب هذا الزمان فله مولدان اثنان! أولهما هو في المكان، وقد كان الذي كان؛ وأما الثاني فإنما هو في الزمان! فارتقب إبان هيجان الجرح، يوم تأتي الرياح بجداء الأنين! فإنه لا ميلاد إلا بألم! واضفر بثاني المولدين تربت يداك! إنك يا ولدي إن تدرك إشراقته تكن من الفاتحين!".

ويفلت منه سؤال معرفة المصير: "قلت: فهل لي أن أكون من طلائعهم؟"

وواضح أنه بهذا السؤال يُصِرُّ على أن يكون واحدا منهم، بل أن يكون طليعة الطليعة، لأن في ذلك الموقع المتقدم تتحقق له الحياة الحق. إن المؤمن لا يرهبه الموت عندما تكون المواجهة هي الطريق إلى الهدف، إنما الموت الذي يقهر المؤمن هو الموت خارج ميدان المعركة، إن توقف المسلم عن الزحف بشئ أنواعه التعميرية والدعوية، يُعدُّ بطالة قاتلة، حيث تكلل أسباب الصمود، وتراجع إرادة المغالبة. ولقد عبر سيدنا خالد بن الوليد عما يجده المؤمن من وطأة وغبن جراء انتظار الموت على فراش العلة: "ها أناذا أنفق في فراش السلولية كما ينفق العير في المراح.. فلا نامت أعين الجبناء".

إن انتظار الأجل يتحول عند المبطلين إلى حالة من الإنهاك الكابوسي الذريع، أشبه بواقعه عدوان غاشم يستولي على الحمى بلا مقدمات.

## رمزية الأشياء

ولقد تبطن خطاب الرواية بإيعازات ورموز تفتح دلالتها على التفاؤل. ولا غرو أن يكون الأمر كذلك، فإن ازاع المقاومة يجد في استدعاء معاني البشر والتفاؤل، وفي اللوذ جُرمة المقدسات، ما يلبّي شينا من حاجة النفس إلى الإسناد والثبات. ويمكن - في هذا الصدد - أن نرى في تواتر لفظ الحمام وحما من هذه الصمودية التي تقتضيها منا الأوضاع الصعبة. إن لفظ الحمام يتردد في هذا المدخل بكل ما يومي إليه من رمزية ودلالة تجسد مطلب البحث عن المنعة والخلاص والتواصل والسلام. إن في مدلول لفظ الحمام إحالة إلى محيط الأشواق التي تمور في أعماق الكاتب، البعيد عن الأهل، والمقيّد بالأثقال.

إن الخطاب يشحن بمحمول دلالي موضوعي يتساق في الوجهة التي تتوخى الرواية أن تسلكها، وهي تدوين سيرة الإمام، وهذا المحمول الدلالي الموضوعي يلبسه محمول دلالي آخر ذاتي، لا يفتأ يعترض السياقات، لينفّس عن لواعج النفس، وفي كلا الحالين يظل السياق يعرب عن تفاؤل ينسجم مع طبيعة المؤمن الذي - بفضل إيمانه - يستمد رحمة الله من صميم تعاليم عقيدته: "ارفع رأسك قليلا نحو الأفق الأعلى؛ ترّ شمس البشرية ترتفع الهويني من خلف الأحزان، وترّ كلمات النور الأولى ترسم بين يديها قوس قزح، وتطرز على

لم يعد حس التقارب بين  
إسطنبول المتجددة وبين المغرب،  
يتم افتراضا في ذهن الأنصاري  
فحسب، بل لقد بات التواصل  
العملي والروحي بين الصعيدين  
حقيقة يعيشها الأنصاري، ويجد  
فيها شيئا غير قليل من دواعي  
التفيس، بل لقد بات التقارب  
بين القارات من آيات التبشير  
بحلول زمن تجدد الزحف  
الذي سيطوي البسيطة ويوصل  
رسالة الله الخالدة إلى العالمين.

موج البحر نبوءتها.. فإذا كنت ممن يحسن لغة الماء فافراً: تُفْتَحُ القسطنطينية أولاً ثم تُفْتَحُ رومية؟!".

و حين يشير الخطاب إلى نص الحديث "تفتح القسطنطينية أولاً ثم تفتح رومية"، فإن مدلول الفتح هنا يوعز بالبعد التأبدي الذي تفيض به جوانح الأنصاري حيال مشروع الدعوة والتأسيس الذي ينهض به الفاتحون، ويوعز في الآن ذاته إلى المطلب الخلاصي الذي يتطلع إليه الكاتب، إذ من العقيدة ونصوصها، لاسيما من تنبؤاتها المستقبلية (المالية) ومبشراتها المصرية يستلهم الأنصاري في محتته الألفاظ الإلهية. فالكاتب لا يفتأ -على هذا النحو الخطابي المتراسل- يستنزل الرحمات الإلهية، إذ لا ييأس من أن رحمة الله قريبة منه، وأنها ستتخطى به ذلك الصعيد الحالك للمحنة التي حلت به. وكما ربّ القدر للإمام فتح الله موعد ولادة ثانية قد بدأت علاماتها تلوح في الأفق من خلال الإنجازات الميدانية، فكذلك بات رهان الأنصاري يتركز على ما سيتحقق له من مولد ثانٍ مُرتجى، مولد الانبعاث وعودة العافية إلى الجسد المخترق بالداء. والسياق الحواري يسدّد نحو نقطة حاسمة، مركزية، يريد الأنصاري من خلالها أن يعرف هل يُكتب له أن يكون من طلائع هذا الزحف الذي شرعت كتائب الفتح تنتشر في الآفاق. إنه في ذلك الموقف المشوش، يُشبه وضع موسى عليه السلام مع فناه في قصة العبد الصالح. لقد تقاطعت في وجدانه صورة موسى عليه السلام مع فناه، وصورته هو مع مرافقه الذي يرعاه ويسهر على خدمته: "قلت لفتاي: ويحك يا ولدي! ذلك ما كنا نُبْعُ..".

هكذا يستدعي السرد مقامات الارتحال والضرب في الأرض كما جسّدتها الرموز ممن حازوا مرتبة العبدية على معابر من نار العبودية والتمحيص. فالإحالة السردية هنا تستحضر قصة العبد الصالح مع فناه، في سفرهما الحارق، وتحيل إلى تجربة التمحيص التي كشفت -في جملة ما كشفت- عن تلك المشاق التي تعرّض لمن يراهن على تحصيل السر، والظفر بالحقيقة.

وطبيعي أن التماثل بين فتى موسى والأنصاري تماثلٌ في المقصدية، إذ إن مطلب الأنصاري في سفره أن ينفذ إلى برزخ التجدد، فيغنم من رحلته تلك، ويعود إلى وطنه معافي، وصاحب حاجة، وحندياً قد تم إدماجه في المفرزة، عن جدارة واستحقاق: "ثم مكثت عاماً كاملاً بعد تلك المشاهدات! أنتظر المزيد ولا من مزيد! ورجعتُ إلى وطني أنتظر الإذن بالرحيل مرة أخرى إلى بلاد النور!".

## عودة إلى الديار المغربية

وتومئ القصة إلى بعض أطوار تلك السنة التي قضاهم الأنصاري في المغرب، يتصيد الانبثاقات الفجرية من هذا الصدد وذاك، وكل شيء من حوله يذكره بفواجع التاريخ، فالنفس المروعة لا تقرأ في الأفق إلا ما يتساق مع انكسافها: "ما بين طنجة وجبل طارق، يرقدُ بوعاز الأبحر!.. لم نزل نوارسُه كلَّ مساء تحكي بنشيجها الشجي مأساة الموريسكيين".

وطبيعي أن تأتي اللوحة مفعمة بمعاني النعي والرتاء والقشعريرة والهيجان الشعوري العارم: "كنتُ أسير حافي القدمين ما بين طنجة وتطوان؛ لعلني ألتقط صوتَ حمام زاحل، قيل لي: إنه لم يزل ههنا مُدَّ عَبرَ أميرٍ غرناطة الأخير طريداً من جنّته! فرثاه هذا الحمام الغريب بكنوز من أسرار الحكمة! قيل لي: إن له هديلاً كلما انطلق شجاء اقشعرت له صخور الشاطئ! وبكت النوارسُ واهتاجت الأمواج!".

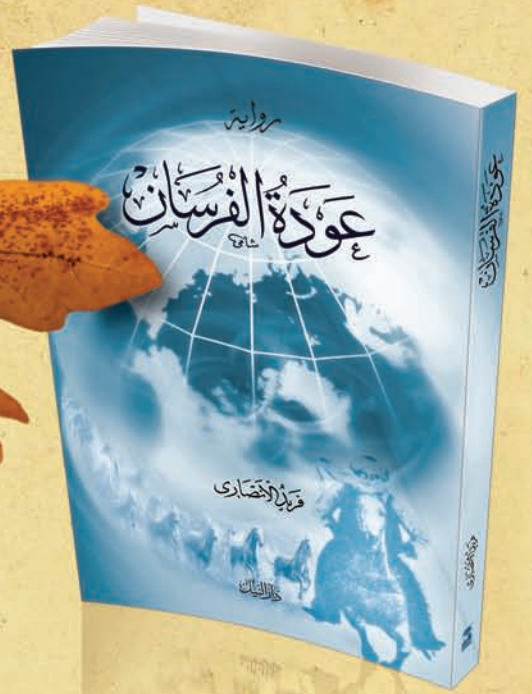
إن انقطاع مدد التحليات عُقْمٌ وجداني لا تحتمله روح المرابط.. ومع ذلك تأتي النفس إلا أن ترابط عند إقليم الرجاء، خلف أسوار ليل القنوط، متصرة ومحسبة، تتوقع حلول رحمة الله في كل آن.. ويتحدث الأنصاري عن مواعيد شقية كان الانتقاس يشهد فيها عليه. وتبلغ تلك المواعيد ذروتها عند حلول المساء، والمساء كما نعرف هو مناط عذابات المفجوعين، فتنوع مشاهد النكبات تغدو هي المحطة التي ترسو عليها أرواح المنكوبين حين يحل الليل، وهي العلقم الذي يدمنون على تعاطيه في ذلك الميعاد المليء بالوحشة والزمهريير.

## استحضار النكبات

وواضح أن استحضار الأنصاري لنكبة "الموريسكيين" ضمن هذا السياق، ينسجم مع الحال التي كان عليها، فالمرسيكيون هم أولئك المسلمون الأندلسيون الذين قهرتهم دورة القدر، فقضت عليهم بالهجرة، بل قضت عليهم بأن يكونوا آخر من يغادر الديار طرداء لا ملجأ لهم، إلا قاع البحر، حيث ستأتي عليهم الأمواج والحيتان: "وبكت النوارسُ واهتاجت الأمواج!".

لا ريب أنه تصريحٌ بتجربة التمسح بالمقامات والمشاهد ومثابات التعزية التي يكون الأنصاري قد خاضها وهو يناضل ضد أشباح الشؤم، ويتداوى بعقاير الروح وتشفعات أهل الكرامات، بمن فيهم العاكف فتح الله..





إن الكتابة عن الرموز تعني  
الانخراط في السلك وإعلان  
الانتماء. والأنصاري حين  
أصر على أن يختم رحلته  
الحياتية بتوثيق سيرة "إمام  
المرحلة"، فإنما شاء أن يعلن  
انتسابه الروحي والأدبي إلى  
كتائب هذا الإمام العارف بالله،  
العامل على ما يخدم عباد الله،  
ويكفل لهم سعادة الدارين.

لقد كان واضحاً أنه هب من موطنه، وطار إلى حمى زُهاد النور ينشد الحماية والاستجارة  
والاستظلال بوارف نفحاتهم، ولقد رابط عندهم يستعيد بالكرامات، وأثناء ذلك لم ينقطع  
عنه هو أيضاً بكأوه، فمن شأن مجاورة أهل الحال أن تجعل ينابيع الروح تتفجر.  
وتأبى صورة الشجى في الوجدان إلا أن تستحيي معالم الحزن الدفين الذي تمثله نكبات  
التاريخ في كل من الأندلس الفقيده وإسطنبول التي ضيعت تاجها بضياح الخلافة منها.. لم يعد  
حسن التقارب بين إسطنبول المتجددة وبين المغرب، يتم افتراضاً في ذهن الأنصاري فحسب،  
بل لقد بات التواصل العملي والروحي بين الصعيدين حقيقة يعيشها الأنصاري، ويجد فيها  
شيئاً غير قليل من دواعي التنفيس، بل لقد بات التقارب بين القارات من آيات التبشير بحلول  
زمن تجدد الزحف الذي سيطوي البسيطة ويوصل رسالة الله الخالدة إلى العالمين.  
إن الجغرافية بفضل ما توفر للإنسانية اليوم من إمكانيات الاتصال، قد تقهقرت وقهرت  
المسافات والأبعاد المكانية الفاصلة بين الأنحاء والأقوام، لينتعث التاريخ في ضوء هذا التطور  
الذي حقق حلم طي الأرض وجعل العالم قرية واحدة ينتقل المرء بين قاراتها كما ينتقل بين  
أحيائها، والوعي بهذه الحقيقة هو ما يهب للأنصاري بعض ما يلطف من محنته، إذ أن التطور  
بات يكفل للأنصاري أن يطير بجناحه تارة أخرى، إلى أرض الأنوار. ويحل بإسطنبول: "هذه  
إسطنبول مرة أخرى.. ناداني خاطراً حزين! قال لي: مقامك حيث أقامك! لا مكان لك  
اليوم يا صاح إلا بمنزلة الاستغفار! فصرتُ أسمع صوتاً من أعماق فوادي، يتكسر موجه  
هوناً على شطّ لساني: رب اغفر لي..! رب اغفر لي..!" ويروي ظروف نزوله بها: "ها أنا  
ذا محمول على سيارة، كنت مريضاً جداً! لكنني كنت على وعي بما أسمع وأشاهد.. كل  
شيء أدركه الآن، هذه الطريق الكبرى وسط إسطنبول، وهذه قباها ومآذنها عن اليمين وعن  
الشمال، تلقي بأنوارها في كل اتجاه.. وهذا هو الجسر العظيم، هو جسر نصب حديثاً،  
لكنه منصوب على تاريخ الفتوح بين آسيا وأوروبا! فلم يزل بعد ذلك قنطرة عبور النور

الجديد إلى المستقبل! وهذا... آه! هذا مستشفى "سما" مرة أخرى!..  
وهنا أدركتُ للتو مقامي! وعرفتُ أنني قد أخفقت في الامتحان الأول!  
فاستأنفت دروسي بفصول المدرسة الأيوبية من جديد!..

فمن خلال هذه السياقات التي يرتد بها الخطاب إلى الذات، تطفو  
الشجون، فنقرأ تقاطيع من السيرة الذاتية للكاتب، وتحديدًا نقرأ يوميات  
عاشها في إسطنبول، أثناء مرحلة الاعتلال واليأس والغروب: "كان رأس  
السرير ميمما نحو القبلة، وكانت النوافذ الكبيرة مشرعة الأحضان على  
بحر مرمرية، والجُزُرُ الحُمْسُ وَسَطُهُ كلها تنتصب أمامي كالإعلام.. كانت  
الشمس على وشك الغروب خلف قَدَمِي، وكانت أشعتها تطرّز مرمرية  
عمرية الأشجان! وترسل إليّ أهازيح من أذكار المساء، مُرتلةً عبر أوراق  
شجرة الدُّب المنتصبة خلف نافذتي! حتى إذا مات النهار شاهدتُ جنازتي  
ترتفع أمامي في أفق البحر الغارب، وتذكرتُ صلاتي! أَدَيْتُ العشاءين  
جمعاً وقصراً؛ استبقا للحظة الوصل، ثم بكيتُ! كان الليل قد أشرق  
مواجهه سُرجاً تتلألأ في جزر البحر، وكانت مصابيح الساحل تحلم  
خافقة بشيء ما.. وغمرني الحنين إلى أورادي، فما أن شرعتُ في ترتيل  
مواجهها، حتى انهمرت على قفاي صفعاتُ الرحمة تترى! هي رحمة نعم  
لكنها صفعات! وكان الألم يا سادتي شديداً!". هكذا تترجح كفة اليأس،  
ويتحدد الطريق المفضي إلى الاستسلام.

ولما كان الخطاب يتسع إلى أكثر من منحى دلالي، أمكننا القول بيسر  
إن السارد -وفي سياقات عدة- كان يتحدث عن نفسه ويتحدث في  
الوقت ذاته عن الأمة المُصابة في مقاتلها، الباحثة عن الحياة وعن الشفيع  
والمنقذ. وفي غضون ذلك كله لا يفتأ اللاشعور ينعي للكاتب ذاته من  
خلال مسابقات وِوحيات سردية: "سنة كاملة يا سادتي وأنا أجري بين  
غروب وشروق! سنة كاملة وأنا أظن أني كنت أغسل أدران الروح  
عن بدني، ولكني اكتشفت الآن أنني لم أبرح مكاني! فعدت مثقلا بكل  
ذنوبي! لقد أخطأت الطريق إذن! فكان الحكم أن أعيد الدرس من البداية!  
فالرحمة الرحمة يا الله!".

### وارث السرّ

والرواية عند هذا المستوى من التسديد، تصطنع مقطعا إنشاديا توظفه  
على هيئة لازمة وقفل، يتردد في أعطاف النص أكثر من مرة، تُحيل فيه إلى  
مقام الإمام فتح الله، باعتباره باني الجسر نحو المستقبل، والوريث الروحي  
لنجاح الصالحين: "فَتَحَّ اللهُ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدا!..



فَتَحَّ اللهُ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَزَلْ يَبْكِي؛ حَتَّى احْتَارَ الدَّمْعُ لِمَأْتَمِهِ! فَتَحَّ اللهُ وَارْتُ سِرًّا، لَوْ وَرَنَهُ الْجَبَلُ الْعَالِي؛ لِأَهْدَى الصَّخْرَ مِنْ أَعْلَى قِمَتِهِ، وَلَخَرَّتْ أَرْكَانُ قَوَاعِدِهِ رَهْبًا!". وتنوء اللغة المستخدمة بشحنات من الأسى، ومن الرهق وأعباء الكتابة المضمرة في الروح، فيأتي السجل حافلا بمفردات الولوج وعبارات النواح.

إن حلوله في أروقة المستشفى -آخر أصدعة النجاة أو المهلاك- ومواجهة الواقع غير المبشر، يفجر منابع الألم فيه. ومع ذلك يتقوى الأمل والتشبث بالبقاء.

هو نزيل "المدرسة الأيوبية"، ولئن كتب الأنصاري عن فتح الله وهو على تلك الحال من الابتلاء، فلأن فتح الله هو عينة أيوبية مكبّرة، تعاني من اعتلالات أشدّ إزمانا: "وحدة، واغتراب، وانهماك في شقّ الدرب أمام الأمة، وإدامة المجاهدة على أصدعة الروح والخطّة".

ولقد بذل الخطاب من جهود التورية وإخفاء العواطف، ما جعل المنحى السردي العام، يفلح في تحطّي مساحات الاستدرج والإغراء التي ظل الموضوع يضعها في طريق الكاتب، لاسيما والنفس معبأة بمشاعر الفجيعة، فهي من ثمة في ميسيس الحاجة إلى تركيز وجهة الإعراب والتفريغ على ذاتها وشجوها الشخصية. ولذلك نجد أحيانا التورية تصطنع الخطاب اصطناعا بديعية وجناسية، إذ لا ننسى أن الأنصاري أحد فحول القريض، فاخترال العواطف وتسويقها في الصيغ المكتترة من صميم خبرته. إن قوله مثلا: "غمري الحنين إلى أورادي..". يغطي على مضمّر سردي هو: "غمري الحنين إلى أولادي".

وفي مَشْفَى سماء السماوي، يجد الأنصاري نفسه يقرأ سيمياء المكان، ويفكك رموز الموقع والأبعاد، وتتوطد الحميمية بينه وبين الأشياء، فهو يرجو الرحمة من كل أفق.

#### مواجه الروح والجسد

لقد ظلّ يأسى لنفسه، ولعجزه، وانقهاره عن أن يكون قادرا على التجدد، مؤهلا لاحتلال منزل له في مقامات الزمان. ويتحدث عن نافذة المشفى حيث امتد سريره، ذلك لأنه يدرك أن للنافذة شأنًا في ما سيكشف عنه من أخبار الداعية الإمام، كما سيرويهما للقراء في سياقات روايته تلك. كانت نافذة المشفى مشرعة، لكن البحر لا يتيح له النظر إلى الأبعد، إلى العرش، فالعين كانت تريد أن ترى مكناس، أن ترى العافية. في تلك الأثناء كان هناك همّ واحد يسكنه، أن يعرف نتائج الفحص الطبي.

لقد اطمأن إلى هذا المرافق النوراني الذي يلازمه، بل لقد تأثر بما كان عليه من روحانية جليلة، فكان حضوره معه يخفف عنه بعض العناء، واشتدت الصلة بينهما ليس فقط لأنه كان مرافقا من طراز خاص، ولكنه إلى ذلك، كان وسيلته إلى معرفة الحقيقة، حقيقة مرضه: "سألته ماذا قال الطبيب؟ وانتفضت جوانحه بقوة لكنه لم ينبس ببنت شفة! بيد أنني يا سادتي سمعت الكلام ينطلق متدفقا من بين جوانحه، وكأنما هو صدى لهاتف ينزل عليّ من العالم العلوي!". فالأنيس المرافق ظهر أنه من أهل الورد، وأنه من ذوي الشأن على صعيد مراتب المعراجية، بل وأنه يتبع الحمية ذاتها التي ظل كولين ينصح بها المرشحين للمرابطة. "قال لي:

لا ريب أن وضع الأمة اليوم  
لا يكاد يبتعد عن وضعها  
الذي كانت عليه بالأمس،  
فهي تبحث اليوم أيضا عن  
الحامي، عن شقيق أكبر يكفل  
لها المنعة والعزة والصون.



"الرواية-السيرة"، كانت بجملتها الأدبية الراححة، وبتأنق شعرية خطابها، وتألّق نبرتها، أقدر على امتصاص المشاعر والتنفيس عما في النفس من كرب المأتمّة.

وسنرى كيف أن السرد حين باشر التوثيق لحياة الأستاذ الإمام، قد تخفّف من لبوس شعريته، فالتعبئة أضحت في ذلك المستوى من الرواية، تعبئة مواقع وعراكات ومآثر وقُربان، بحيث أضحت الراححة في الخطاب لعرض الأحداث، وذكر المناقب، وإحصاء مواقع الاشتباك والنزالات التي تشكلت منها هذه السيرة الحافلة بالثمار، لأن المقام مقام استظهار مكونات هذه الملحمة وإبراز مفرداتها كما ارتسمت على شريط العمر.

شخص الأنصاري كما برز في سياق السرد، ظل يمثل الأمة في عصر الغين الذي سلف، حين مدت يدها للشقيق الأكبر تستدعيه وتستنجده وتحتمي به من انتهاكات الصليبيين.

### الاستخلاص

لا ريب أن وضع الأمة اليوم -زمن رجوع نكبة الاستعمار العسكري من جديد إلى أوطاننا كما وقع في العراق- لا يكاد يبتعد عن وضعها الذي كانت عليه بالأمس، فهي تبحث اليوم أيضا عن الحامي، عن شقيق أكبر يكفل لها المنعة والعزة والصون. وتركيا إذا ما أحييت روحية الإسلام والحضارة، وابتعثت مشاعر القوامة المليّة التي تميزت بها الخلافة العثمانية، وإذا ما استنفرت قدراتها المادية والمعنوية، وعرفت كيف تتقرب من أشقائها وقربهم إليها، فستجد نفسها متأهّلة من جديد لمدّ أجنحتها وأشرعتها على جغرافية الأمة، والسير معها نحو الرفعة والسؤدد والمشاركة في صنع التاريخ العالمي، كما كان شأن الأمة بالأمس.

إن الكتابة عن الرموز تعني الانخراط في السلك وإعلان الانتماء. والأنصاري حين أصر على أن يختتم رحلته الحياتية بتوثيق سيرة "إمام المرحلة"، فإنما شاء أن يعلن انتسابه الروحي والأدبي إلى كتائب هذا الإمام العارف بالله، العامل على ما يجدم عباد الله، ويكفل لهم سعادة الدارين. ■

(٤) جامعة وهران / الجزائر.

جسمك مرتبك جدا يا صاح! لكنما هو رَجْعٌ كسيرٌ لصورة الروح في خابيتك الكسيرة! أما الأطباء فلهم مسالكهم إلى طينك المسنون، وأما من يسلك فيك نحو جراحات الروح.. آه! أما مسلكُ الروح إلى مواجعك يا صاح.. آه! ثم سكت!

وفي كل ذلك ظل الكاتب يعترف من معين الذاتي، ويظفي لاعج الاعتلال على جبل السرد، فيجمع الخطاب ويرتد إلى حيز الروح، ويلوذ بالمجازية يوارى بها أشيائه الصميمة المكسرة، ويهرع ينحاز إلى جوقة الأخيار، يدفن في مواجعها عويل روحه، ويستمد من الإحساس برابطة التجانس معهم الثبات والقوة والتماسك. لقد ظلّ الصالحون وعلى مدى العهود، يصنعون البحيرات من دموعهم، وتلك البحيرات لا تفتأ مشرعة، و"لم تنزل ترفدها منذ قديم الزمان دموع الحوارين، وأشجان الصحابة الكرام، ومكابدات النُساك المتعبدين، وزفرات أويس القرني، وبكاء الحسن البصري، وشهيق أبي العالية الرياحي، وأسرار الإمام الجنيد، وأنفاس بشر الحافي، ومواقع الحارث بن أسد المحاسبي، ومواعظ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومجاهدات الشيخ أحمد زروق الفاسي، ومواقع عبد الواحد بن عاشر الأندلسي، ومشاهدات بديع الزمان النورسي!"

### شعرية السرد

الأدبية تأخذ أحيانا سياق الأوراد، فيتلبس المضمون السردى كما تعرضه مساقات الرواية في مفتحتها، مع مضامين الذكر والأدعية المتواترة في حلقات الذاكرين. الديباجة التي ميزت مفتتح



# بدا حاجب الأفق

شعر: فتح الله كولن

تعريب: فريد الأنصاري<sup>(\*)</sup>

ألطاف تنزل وابتلاءات تمطل...  
وكالغيث يشوبه الثلج ينهل عليّ،  
والمشاهد تتري، والستار ينفرج وينسدل...

كأن الميعاد قد حان،  
وفي الأفق شفق جديد،  
ظلّ العالم الآخر يلامس وسادتي كل حين،  
في ربوع قلبي شاهدت سابقاً ذاك الطلوع،  
فصلاً بعد فصل،  
فوجدته أشدّ طرباً من أشعة ربيعي الأول...  
ولكن، إذا بقيت فرصة لخدمة ديني بعد اليوم،  
فصبراً على الحياة هنيهات،  
وحق لها أن تعاش فترة أخرى،  
أما الآن فهمني الوحيد هو أن يُعرف المولى العظيم،  
ليت شعري، ربما بعد بضعة خطوات،  
يُعرف أكثر مما كنت أحلم وأتوق...

(\*) لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيه المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قدّمت له مترجمة ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

أوشك السفر على الانتهاء،  
وبدا حاجب الأفق،  
ذاك الربيع الذي كان مخضراً بكل أشكاله،  
أصبح اليوم مصفراً..  
الروح كالورقة، مهياً للرحيل،  
والقرار موكول إلى "القلم"،  
ليُخطّ النقطة الأخيرة..  
فجأة.. كل شيء بشتي ألوانه،  
ارتدى بُعداً أخروبياً؛  
ثم بدت نسائم العالم الآخر،  
وانكشفت غايات الأحلام الكاذبة واحدة واحدة..  
على كاهلي الآن جبلّ عظيم يوشك أن يتزلزل،  
وفي أملي يتلأل الربيع...

وها كل عضو مني يرتجف مثل أوراق الشجر،  
كأنني الآن ميزان الألم:  
في إحدى كفتيه الخوف، وفي الأخرى مطلق الرجاء..  
وموج الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،  
أحياناً في غاية السرور أنا، وأحياناً أجهش بالبكاء،



# فارس بلا جواد

في مديح النخيل السجلماسي (فريد الأنصاري)

أ.د. حسن الأمrani \* ❖

صدق الوعدُ ليس يُخلفُ وعدَه  
ضاق عن وجدته الزمانُ وما فيـ  
برح الشقِّ بالحبِّ وقد كـ  
ونخيل الأنصار كان عريشا  
صارمٌ ما بنا على كثرة الضر  
آن للفارس المقيم أن يـ  
"آخر الفرسان" امتطى صهوة العـ  
سلك الشَّعبَ، لا حطامَ، فلما  
السجلماسي انتضى ريشة الحُ  
ما تولَّى حين ادلهمتْ خطوب  
إن "كشف المحجوب" غايته القصـ  
علم الناس كيف تغدو "القناديـ  
شق للصَّحْبِ درب عشق فلما  
يا خليلي، تركت قلباً يتيماً  
يا خليلي حقاً، وصاحب دربي  
هو للنور ظامئ ويده  
ونداء المحبوب يوقد في الرو  
وأنا فارسٌ بغير جوادٍ  
ما على العاشقين إثم إذا ما

لقد اختار موكب النور لحدَه  
فألقي لجنة الخلد وجده  
ان عبيرُ الأشواق في البدء مهده  
وهديل الأشعار كان مخرده  
ب، فقد آن أن يعانق غمده  
تي فرداً مولى سينشر وده  
سق وكان النور المؤيد جنده  
برز الأفقُ أصبح النورُ عدَه  
بب وألقى إلى المساكين رفته  
لا ولا خان في الحوادث عهدَه  
سوى فأوماله، فأدرك قصده  
ل" صلاة، ويصبح الليل وده  
آنس البحر راح يركب مده  
يتلظى، لا شيء يبرد وقده  
كيف خلقت صاحب الدرب وحده؟  
في قيود، فمن يحطّم قيده؟  
ح سراجاً يضوي، ويزرع وده  
فأعربي جواد حبك وانده  
صدقوا وعدهم ويصدق وعدَه

(\*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



# عَوْدَةُ الْفُرْسَانِ

شاعية

سيرة محمد فتح الله كولن

رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب

الرواية الأخيرة لفقيه الأمة فريد الأنصاري



- رواية شاعرية النَّفس،
- واقعية المضمون،
- وهَّاجة النور،
- شاجية القلب،
- وجيعة الوجدان...
- تغني للأمل، وتهتف للمستقبل؛
- تكفكف الدمع، وتمسح الألم...

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : +20222631551      الهاتف الجوال : +20165523088

www.daralnile.com





إن أي نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصه، قد لا تكون بناءً دائماً. إن النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بعداً معنوياً في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إن أي حركة من الحركات قد تكون بناءً أو هدامة حسب أنماط عرضها.

